892.78; S111288A; C.1

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

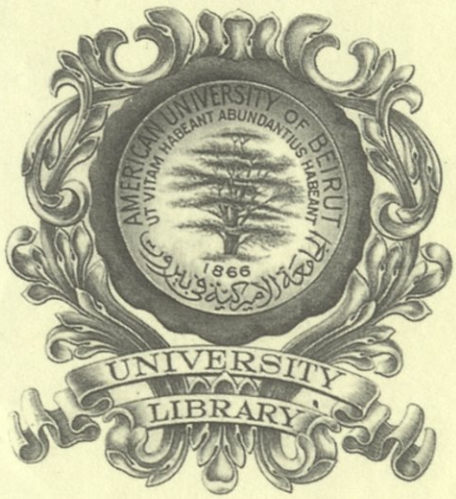

A.U.B. LIBRARY

892.78
S111asA

أسرار الثورة والسنة

رواية تاريخية عصرية

«تأليف»

الدكتور خليل بك سعاده

« حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف »

« مطبعة التمدن بعابدين بمصر سنة ١٩٠٥ »

هدية الكتاب

الى

عطوفتلو أفندم

ادريس بك راغب

شعار مودة وولآء

توطئة

سيكون للثورة الروسية التي لا تزال حتى الساعة نارها في اضطرام واوارها في استعار من تغيير شؤون الجنس البشري ونهضة الامم ما كان لشقيقتها الثورة الفرنساوية في أواخر القرن الثامن عشر من الضرب على يد الجور الاثيمة وكسر أغلال الظلم وقيود الاستبداد والخروج بيني الانسان من دياجير الجهل والاوهام الى فضآء الحرية ومناهل العمران

وليست هذه الثورة طفرة ولكنها ثوران بركان عظيم في المجتمع الانساني يتمشى على سنن البراكين الطبيعية التي ظاهرها طفرة ولكنك اذا تحريت أسرارها وفقهت أسبابها ادركت انها نتيجة اضطرارية لاسباب طبيعية لبثت دهراً طويلاً طيّ حجب الخفاء والكتمان فهي عبارة عن ضغط مائة وعشرين مليوناً من النفوس حولتها نار الاستبداد بخاراً في مرجل تلك الامبراطورية العظيمة فاذا هي لم تجد لها منفذاً انفجر ذلك المرجل انفجاراً هائلاً وتبعثرت اجزاؤه هباء منثوراً في الفضاء

ولقد أتينا في هذه الرواية على بيان الاسباب التي تعمل منذ قرون عديدة على تهيئة افكار القوم وخواطرهم حتى استعرت الآن ثورة اندلع لهيبها في بطرسبرج وموسكو وفنلندا وبولونيا والقوقاس وسائر أرجاء تلك الامبراطورية المتنائية الاطراف ثم اننا ألمعنا ايضاً الى مايقع على افراد الامة من حيف حكام المقاطعات واستبداد العمال وجور المديرين وفصلنا ضروب النكال والعذاب التي يلقاها المنفيون الى سيبيريا وأوضحنا أساليب الجاسوسية الروسية في تلك البلاد وسائر عواصم أوربا وأعمال النهلست الخفية

وجرائمهم التي دوت بها ارجاء اوربا وهلعت لهولها قلوب ملوكها وحسرنا لثام الابهام عن كثير من الاسرار التاريخية التي لبثت حتى الآن ظي حجب الخفاء

ولا يظنن المطالع ان وقائع هذه الرواية من تخرصات الاوهام وصور الخيال بل هي وقائع تاريخية وقف عليها كل من له الملم بحوادث الامة الروسية نحو مغيب القرن المنصرم وفجر القرن الحالي وقد أخذنا شيئاً كثيراً من كل ذلك عن ثقات الكتبة الذين انقطعوا الى هذه الابحاث وجابوا قفار سيبيريا حتى بلغوا اقصاءها ووقفوا على مكنونات أسرارها وخبايا أهوالها وشاهدوا المنفيين في مناجمها ورأوا ما حل بهم من ضروب البلايا وأنواع العذاب رأي العين وعلموا تفاصيل مكايد النهلست واشراك مكرهم والجرائم التي يقترفونها للايقاع بالسلطة الامبراطورية أو ارهابها مما تناولت ذكره جرائد العالم المتمدن وفي صدرها جريدة التيمس الذائعة الصيت التي نشرت بهذا الصدد مقالات ضافية الذيول

ولقد نسقنا كل ذلك في قالب روائي يفقه منه المطالع أسرار الثورة الحالية ونظن ان هذا الكتاب أول رواية عربية نسجت على منوال عصري يتناول الحوادث الواقعية التي لا تزال حتى الساعة تردنا بشأنها مقالات الجرائد الاجنبية تباعاً وتتوارد التلغرافات تترى تنقل كل يوم حديثاً جديداً عن اندلاع لسان الثورة واضطرام سعيرها ووميض بروقها ولعلعة رعودها وما كل ذلك سوى آلام أمة يربو عددها على مائة وعشرين مليوناً من النفوس تتمخض بطفل لم ترَ له مثيلاً قط يسمى الحرية — طفل عمدته بماء العيون ودم القلوب وصراخ اليتامى ونحيب الارامل وبكاء الثكالى وزفرات الصدور حتى بلغ عويلها عنان السماء

المقدمة

يرى السائح بين هضاب لبنان وانجاده بناء فخيماً على شاهق من ربوة تحف بها الأنجم والأشجار وتعلوها الرياحين والأزهار يجري في سفحها العقيق أخاديد في أعماق الوهاد وتتجلى الطبيعة حولها ملكة بارزة في جلباب العظمة والجمال فانك اذا نظرت شرقاً رأيت جبل صنين وقد لبس تاجاً من الثلوج ينطح به هام السحاب وقد تلبد الغمام فوقه جلاليب بعضها فوق بعض ثم تتبدى أمامك سلسلة من الجبال تخترقها الأودية وقد كساها النبات وغطت سفحها الأشجار واذا ادرت لحاظك غرباً وجدت البحر المتوسط منبسطاً رقعة زرقاء كأنه عند موطئ قدميك تتهادى أمواجه الطامية متلاحمة على سطحه فاذا قربت من البر تنفست زبداً وانبسطت على تلك الرمال حيث قائمة هنالك تلك العروس البديعة مدينة بيروت الجميلة التي قال بشأنها امبراطور المانيا عند وصوله اليها انها أثمن درة في تاج سلطنة آل عثمان

وهذا البناء الفخيم الذي أتينا على ذكره الآن انما هو معبد قديم العهد كان أولا بناء صغيراً لفئة من النسّاك الذين زهدوا عن الدنيا أُطلق عليه اسم دير مار ايلياس شُويًّا وكان أول عهده بناية صغيرة تقي ساكنيها وقع الصواعق وتهاطل الثلوج المتراكمة وانهمال الأمطار الغزيرة فلما اتبعت الرهبنة سنة الارتقاء وكثرت أوقاف المعبد ودرت خيراتها وانهالت على الخزينة دنانير الزوار شيد أولئك النساك قصراً منيفاً اذا وقفت على سطحه رأيت منظراً من أبدع مناظر الطبيعة وأشدها وقعاً في القلوب والنفوس

ثم أن في جوار سفح هذا المعبد بلدة في مطمئن من الارض تسمى الشوير كانت أولاً غاباً كثيفاً يتفجر الماء منه زلالاً فاتخذ بعضهم منذ بضعة قرون هذه البقعة موطناً لهم فقطعوا الاشجار وابتنوا المنازل وكانت أوائل أمرها قرية ثم تدرجت حتى صارت الآن بفضل جد أهلها مدينة صغيرة كانت من أوائل

المدن التي طلع عليها فجر المعارف في لبنان و بزغت على أهلها شمس العلوم وقد اشتهرت مؤخرًا روابيها بجودة المناخ وطيب الهواء حتى أصبحت مصحًا يقصدها الاعلاء من سوريين ومصريين وخصوصًا من كان مصابًا منهم بالعلل الصدرية وهي مسقط رأس المؤلف حيث صرف زمن الحداثة والصبوة

ولقد أتيح لي منذ برهة يسيرة زيارة هذا الوطن العزيز حيث دُعيت أن أصرف بضعة أيام في الدير الذي مرّ بيانه ترويحًا للنفس من مشاق العمل فالتقيت بين زواره والمقيمين فيه برجل طويل القامة براق المقلتين بالغ سن الكهولة قدم الدير حديثًا وكان يصرف أكثر أوقاته في العزلة والانفراد عن مجالسة القوم فاذا دخل المعبد للصلاة تأخر عن الجمهور ولبث جاثيًا على ركبتيه وهو رافع يديه الى السماء ولا يخرج الا اذا أعياه الجثو

ثم علمت بعد ذلك أن الرجل روسي المحتد قدم ربوع لبنان بعد شبوب الثورة الروسية التي لا تزال حتى الساعة نارها في سعير فتاقت نفسي الى معرفة شيء من أمره واتفق بعد ذلك ان تعارفنا وتصادقنا وفيما كنا جالسين أصيل ذات يوم بجانب نبع يتفجر منه ماؤه الصافي كذوب اللجين يسمى عين الصرفد وخطرات النسيم تحرك أغصان الأشجار وورقات الأزهار ينتشر أريجها عبيرًا ينعش الصدور ويشرح النفوس تطلع اليّ وقال

« انظر ما أبهى الطبيعة حولنا فان كل ما فيها جميل من نسيم بليل وماء كذوب البلور وأشجار باسقة وأنجم مزهرة وزهور متأرجة وطيور مغردة وجو صاف وشمس مشرقة ولكن الانسان جحود كفور بنعمة ربه يفسد عمل خالقه ويعيث في الأرض شرًّا ويملأ جوّها فسادًا ويصبغ أديمها دمًا ويأتي من المنكرات والموبقات والجرائم ما يندي له الجبين وتصطك المسامع »

فنظرت اليه باسماً وقلت

« أراك شديد التدين كثير الاستغفار تصرف نهارك راكعًا وليلك مصليًا فلو وُجد شخص آخر نظيرك في العالم لكفرتما باستغفاركما عن سائر سيئات الجنس البشري »

فأنَّ الرجل انة خرجت من أعماق احشائه وأجاب

« لو وُجد رجل آخر نظيري في العالم لمـا أشرقت الشمس على الارض ولحجب الله وجهه عن أبناء آدم »

و بعد أن تجاذبنا أطراف الحديث حيناً من الزمن استأذن الرجل بالانصراف فبقيت جالساً وحدي أفكر في أمره وفيما كنت أنظر حولي رأيت ورقة بجانب الصخر الذي كان جالساً عليه فلما فتحتها وجدت فيها ما يأتي

موسكو في ١٨ فبراير سنة ١٩٠٥

مولاي فلاديمير

ان لجنة الثورة هنا عقدت اجتماعاً الاسبوع المنصرم وقررت فيه عملاً بأوامركم السامية الاشتراك مع زعماء العمال في الرأي والاعتصاب العام عند ما تبلغنا أخبار اعتصاب العمال في بطرسبرج حتى تعم الحركة الثورية سائر الاصقاع الروسية دفعة واحدة ولقد جاءتنا الامدادات المالية التي تكرمتم بارسالهـا اغاثة للعمال أثناء الاضراب عن العمل وقيمتها عشرة ملايين روبل ولما شاع أمر الاعتصاب العام في بطرسبورج المعروف بيوم فلاديمير لم نلبث هنا ان اقتفينا أثركم ولمـا وزعنا الدراهم على العمال أثناء العطلة شاع على أثر ذلك ان هذه الاعانات انما هي من مصادر يابانية انكليزية وجاهرت الحكومة المحلية بذلك إذ لصقت اعلانات بهذا الصدد في سائر شوارع المدينة مما أفضى الى اعتراض سفير انكلترا اعتراضاً شديد اللهجة على ما أفدتكم في رقيم سابق بالتفصيل

والغرض من كتابة هـذا الرقيم الآن هو أن تحيطوا علماً بتفاصيل مقتل الغراندوق سرجيوس الذي دوت بخبره سائر الاندية السياسية في انحاء العالم وهلعت قلوب العائلة المالكة فقد سبقت فأنبأتكم في التقرير السابق أن الحكم قد صدر عليه في اجتماعنا الاخير بالاعدام وللبلوغ الى هذا الغرض القينا قرعة كالعادة فوضعنا أوراقاً ملفوفة في كيس بعـدد الاعضاء المجتمعين وعلى واحدة منها اشارة الاعدام المختصة بجمعيتنا ثم جرى السحب على هذا الاسلوب حتى لا يعلم أحد من هو الذي وقعت قرعة الاعدام عليه خوفاً من افشاء السر

لأنك أدرى انه ينخرط أحياناً في عداد جمعيتنا بعض من الاقوام لغرض الجاسوسية ولما انقضى سحب هذه الاوراق لم يبدعلى وجه أحد من الحاضرين ما يدل على أن القرعة وقعت عليه وكانت القنبلة التي أحضرتها الجمعية من لندرا لهذا الغرض موضوعة في صندوق في غرفة خاصة ولما انصرف الاعضاء لم تكن القنبلة هناك ولكن لم يعلم الرجل الذي استلمها أما تفاصيل ذلك المقتل فلا لزوم الى تبيانها لأنها أصبحت الآن حديث القوم وسمرهم

ثم اني أفيدكم أنه مع شدة هذه الاحتياطات التي اتخذناها قد وشى بكم واش الى ادارة البوليس هنا وسلمها عنوان موضع اقامتكم ولما كان وجودكم في الاصقاع الروسية في مثل هذه الظروف محفوفاً بالمخاطر وجب عليكم تركها حين بلوغ هذا الكتاب الذي قد بعثنا به صحبة أحد الامناء خوفاً من وقوعه في أيدي عمال الحكومة وفي الختام أهديكم تحياتي واحترامي

رئيس لجنة الثورة في موسكو

موضع الامضاء

فما انتهيت من مطالعة هذا الرقيم حتى اعتراني ذهول شديد كدت أغيب فيه عن رشدي لاني علمت أن الرجل الذي اصبح لي لغزاً من الالغاز ليس سوى ذلك الرجل العظيم الذي طبقت شهرته الآفاق وتحدثت به عظام ساسة العالم الا وهو غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير امبراطور النهلست او جنرالهم الكبير الذي أتت على تفاصيل أعماله أشهر جرائد العالم وبينما أنا على هذه الحال والعرق يتساقط من جبيني كالطل واذا بالرجل قد عاد فنظر اليّ نظرة لا أنساها مدى الحياة وكان لا يزال ذلك الرقيم المخيف في يدي فاختطفه وقال بصوت أسيف

أما الآن وقد أظفرك الحظ أن تقف على شيء من أسراري فانك دون ريب تفقه السبب الذي لأجله قلت لك اني أشقى البشر

فوقفت منذعراً في موضعي كما لو كان أمامي أفعى وأجبته

« لو علمت انك ذلك الرجل الذي ذهبت جرائمه مثلاً بين الملا وانك قاتل سفّاح وزعيم تلك الطغمة التي تعلمت منذ نعومة اظفاري أن امقتها وأحتقرها

لحسبت مكالمتي لك جريمة ومجالستي إياك اثمًا لا يغفر »

فأمسكني الرجل بيدي وقال

« أستحلفك بالله ألا تمتهني فقد كفاني من نفسي زاجرًا ومن ضميري موبخًا وهذا ما حدابي الى استغفار ربي نهارًا وليلاً وبكرة وأصيلا بيد انك اذا أصغيت الى حديثي وعلمت جلية أمري فقهت الى أيّ حد يدفع الانسانَ جورُ الانسان فاجلس الى جانبي لأقص عليك ما تتوق الى معرفته أسمى رجال السياسة وأبلغ كتاب العصر مما لا يزال حتى الساعة طيّ الخفاء والكتمان والله على ما أقول شهيد »

ثم أمسكني الرجل بيدي وأجلسني الى جانبه وأخذ يقص عليّ بصوت يتقطع كآبة وأسىً الحديث الآتي

الفصل الاول

« الجور يلد اثمًا »

كنت في أوائل العمر من اسرة ذات ثروة طائلة وجاه بعيد الصيت وكان والدي أعظم تجار مدينة بطرسبرج وأكثرهم نفوذًا ولم يكن لي سوى شقيقة ربيت واياها الى أن ترعرعت وبلغت سن الرشد واذ ذاك اضطررت الى ترك الأهل ومغادرة الخلان للقيام بالخدمة العسكرية التي يقضي بها قانون البلاد وكان ذلك أمرًا عسيرًا عليّ لاني اعتدت الترف والرفاه ولكني تجلدت وصبرت على ما قُدّر لي صبر الكرام

أما الموضع الذي ذهبت اليه لاتمام الخدمة العسكرية فهو بجانب سهول بحيرة كوبنسكوي المقفرة فتحملت المشاق صابرًا على مضض العيش وكانت الرسائل التي ترد عليّ من أسرتي تباعًا بلسماً شافيًا لكلوم القلب ومهمازًا للنشاط والاقدام ونورًا يبدد عن عينيّ ذلك الظلام الدامس إلا أنه ما انقضى عليّ سنتان من الزمن حتى انقطع ورود هذه الرسائل فجأة فبعثت أستنبيء الأهل دون أن

يردني جواب على الاطلاق فطيرت على جناح البرق رسائل استقصى بها الاسباب ولما لم يجدني ذلك نفعاً بعثت بكتب عديدة الى أخص الأصدقاء دون أن أظفر بطائل ولما أعيتني الحيلة تقدمت الى رؤسائي استيمحهم الاذن بالذهاب الى بطرسبرج فذهبت أتعابي أدراج الرياح فاضطررت الى البقاء مرغماً وأنا على أحر من الجمر

واتفق صباح ذات يوم أن التقيت برفيق يتمشى وهو يطالع أحد أعداد جريدة النوفوفريميا الشهيرة فلما دنوت منه قبض على ذراعي وأشار الى فقرة من ذلك العدد وسألني « هل الرجل من ذوي قرباك ؟ » فما أجلت نظري في تلك الفقرة حتى علا وجهي الاصفرار وسقطت الجريدة من يدي ووقفت صامتاً وقد تولاني اليأس وكان فيها ما يأتي

«ان سرجيوس فلاديمير مثري بطرسبرج الشهير كان في عداد المنفيين الى سيبيريا أثناء الأسبوع الغابر عملاً بالأوامر السامية الصادرة من الدوائر الرسمية بهذا الصدد »

ولما سكن جأشي وثاب اليّ رشدي وفقهت ما حل بوالدي استفزتني عاطفة الحنو لمعرفة ما جرى لوالدتي وشقيقتي على أثر هذه النائبة فألححت في طلب الاذن بالذهاب الى بطرسبرج فلم يُغن ذلك فتيلاً بل أُكرهت على البقاء الى أن أتممت الخدمة العسكرية فما صدقت أن انبثق فجر ذلك اليوم حتى ركبت القطار وبلغت مسقط رأسي ولا بد لاتمام هذا الحديث أن أقص عليك ما علمته بعد ذلك من شقيقتي أولغا

وشى بعض أعداء والدي وحساده به الى القيصر فأصبح من المغضوب عليهم لغير ذنب وبينا كان قصرنا ذات ليلة مزدانا بالأنوار والألحان الموسيقية تشنف الآذان والمدعوون في رقص وطرب اذا ببضعة نفر من رجال البوليس دخلوا على حين فجأة فألقوا القبض على والدي ثم قضى عليه بعد اسبوعين بالنفي الى المناجم التي بجوار بحيرة بيكال دون تحرّ أو محاكمة وصودرت أملاكه وطردت والدتي وشقيقتي من القصر الى الأزقة والشوارع فاضطرتا أخيراً للذهاب الى بلدة صغيرة في مقاطعة موغليف حيث أخذتا تشتغلان

بالتطريز قياماً بأودهما ثم حصل بعد وصولهما الى هناك قحط أوقع الأهالي في مجاعة شديدة ولما بلغت بطرسبرج للاستخبار عنهما كانتا في أسوأ حال وأنا لا أعلم لهما مقرًّا

أما والدتي فان الجوع قد بلغ بها مبلغا برّح بجسدها وأنهك قواها فاضطرت الى ملازمة فراش رث في غرفة شديدة البرد والزمهرير وتبدى عليها من لوائح الشحوب والخوار ما أيقنت معه ان شبح المنية واقف بجانبها وكانت شقيقتي اولغا واقفة امامها تذرف العبرات تلوَ العبرات حتى ابتلت اثوابها من الدموع وشعرها الجعدي مسترسلٌ على كتفيها وظهرها ثم انحنت على امها وقبلت وجنتيها الباردتين قائلةً « هل تشعرين يا والدتي العزيزة بالم شديد ؟ »

فتطلعت اليها الام نظرة كلها انعطاف وحنان وقالت لها « يا اولغا ان انفاسي معدودة وعما قليل سأترك هذه الديار الفانية وستكونين من بعدي وحيدة شريدة لا معين لك الا الله فاتكلي عليه واستجيري به ساعة اليأس والقنوط وهو يسدد خطواتك ويظلك بجناحيه »

فاغرورقت عين أولغا بالعبرات وقالت « خففي كربك يا والدتي الحنونة ولا تتكلمي عن الموت فاني لا أطيق سماعه — كلا كلا انك لا تموتين — اني انتشلك من مخالب المنية ولا أتركك تموتين جوعاً ولو اضطررت للاستعطاء في الأزقة والشوارع كأفقر المتسولات وها أنا عائدة اليك بعد هنيهة بالطعام » ثم انبرت من الغرفة كالسهم المنطلق

فأخذت تسير هائمة على وجهها في الشوارع وعيناها لا تقعان الا على كل ضئيل الجسم شاحب اللون فاتر العزم من شدة الخوار وهي آثار القحط والجوع ولبثت على هذا المنوال تقطع شارعاً بعد شارع دون أدنى جدوى وهي تستعطي من أقوام هم انفسهم أحق بالشفقة والرثاء حتى بلغت أخيراً طرفاً من الشارع كانت واقفة فيه سيدة حسنة البزّة والوجه وبيدها رغيف تطعم منه كلباً أمامها فتقدمت اليها وسألتها كسرة فنظرت اليها السيدة شذراً وانتهرتها قائلة « أمثلك يعطى رغيف كلبي ؟ »

فجثت أولغا على ركبتيها وقالت لها « أستحلفك بالله أن تسمحي لي بكسرة صغيرة فان أمي على فراش الموت وهي في حال النزع من الجوع » فنظرت اليها السيدة نظرة الاحتقار والامتهان وقالت لها « موت أمك ليس بخسارة عظيمة على الكون »

فلم تثني أولغا عليها السؤال بل وقفت من مجثاها وقوف الظبي النافر وقد صبغ احمرار الخجل خديها بلون الجلّنار ولكنها لم تسر رمية حجر حتى شعرت بيد كأنها من حديد وُضعت على كتفها وصوت أجش يقول لها «ماذا تفعلين هنا أيتها الشاردة ؟ » فالتفتت شقيقتي الى الوراء فاذا الرجل رئيس بوليس البلدة فلما رأته امتقع لونها وقالت له « أتيت الى هنا للحصول على بلغة من العيش فان أمي في حال الاحتضار »

— « اذا كان الامر كذلك فاني أنصحك أن تذهبي الى محافظ البلدة فان لديه أموالاً تصرف في هذا السبيل بعثتها اليه الحكومة تخفيفاً لويلات المجاعة فاسرعي ولا تقفي لحظة واحدة » فأحنت شقيقتي رأسها له علامة الشكر وأسرعت جهد الطاقة لبلوغ المحافظة لأنها أدركت أن أنفاس والدتها معدودات بالدقائق فما ابتعدت عن رئيس الشرطة قليلاً حتى تبسم حبوراً وهو يقول في نفسه « ان صديقي المحافظ خبير بملامح الجمال »

وكانت أولغا آية في الحسن طويلة القوام ممشوقة القد وردية الوجنتين جعدية الشعر لا تتجاوز ثمانية عشر ربيعاً من العمر ولم يكن لها معرفة بالمحافظ سوى ما كان يسمع عنه من فظاظة الاخلاق والاستبداد بالرعية فان للحكام والمحافظين في روسيا سلطة مطلقة على العباد يتصرفون بهم وبشؤونهم تصرف المالك بملكه لا ينازعهم منازع ولا يردعهم رادع فكان المحافظ اذا أغضبه أحد أمر بجلده بأسواط يدمي وقعها الجلود فاذا اتفق أنه أمر بقتل أحد دون تعذيبه وجلده أولاً حسب ذلك منه منة ورحمة للعالمين — هذا هو الرجل الذي ذهبت اليه شقيقتي تستغيث به من مخالب المجاعة والموت

فلما مثلت أولغا بين يديه تأمل فيها لحظة تأمل الحيرة والذهول ثم صرف

الخادم وتوجه الى الباب ففتحه ثم نظر اليها قائلاً « ماذا تريدين أيتها الابنة ؟ »

فانحنت أمامه باحترام وقالت « بعثني الى سعادتك رئيس الشرطة »

« اني أشكره لأنه انتقى لي فتاة كلها جمال فتان »

فأغضت أولغا الطرف عن أقواله وأفادته أنها انما قدمت اليه تسأله شيئاً من القوت سداً لرمق والدتها التي أصبحت على وشك الموت فنهض من مكانه وأظهر لها شيئاً كثيراً من اللطف ثم طوق خصرها بيديه وقبلما أتيح لها التملص منه شعرت بشفتيه على خدها الوردي فذُعرت منه ذعراً شديداً وقالت له « لو علمت ان الفتاة التي أمامك هي ابنة سرجيوس فلاديمير لما تجرأت على كسر حرمة الادب أمامها ولكن الدهر قد أخنى علينا بكلكله وعضنا الجوع بنابه فأرغمت على الحضور اليك وأنا على يقين أني في حضرة شهم لا يرد مثل هذا الطلب وخصوصاً لأن جلالة القيصر أبانا جميعنا قد بعث اليك بما فيه تخفيف ويلات المجاعة »

فاحمر المحافظ خجلاً وراعت عليه الحدة فقال لها « الست ابنة ذلك النهيلستي الذي تآمر على حياة مولاي القيصر وهو الآن في صحاري سيبيريا منفيّ يلقى جزاء ما جنت يداه ؟ »

« ان هذا افكٌ يامولاي وما هو سوى وشاية كذب وبهتان قام بها اعداؤنا حتى انهم تمكنوا من ارسال والدي الى ارتسك دون ان يسمح لهُ بالدفاع عن نفسه »

« اتجسرين ان تتكلمي بمثل هذا عن عدل جلالة القيصر فان كلامك يشهد عليك انك نفسك من عداد تلك الطغمة الشريرة » فارتاعت اولغا وحسبت ان المحافظ يود ايقاعها في اشراك النهيلستية ويتخذ ذلك حجة على نفيها فأوجس الحاكم خيفة من هذا الارتياع وحاول تسكين روعها فدنا منها وقال لها « اني لاأود ان ألحقك بوالدك » ثم انحنى نحوها وهمس في اذنها كلاماً نفرت منه نفوراً شديداً وقالت « معاذ الله — ان الموت لأحبّ اليّ من مثل ذلك » ثم تملصت منه في مثل غمض الجفن وتقدمت الى الباب ففتحته وخرجت لا تلوي على شيء

فاحتدم المحافظ غيظاً ولم ينبس ببنت شفة أما أولغا فانها عادت الى الجولان في الازقة والشوارع والمنعطفات ولبثت على هذا المنوال عدة ساعات تركض وراء كسرة من الخبز وتستعطف العابرين وتستغيث بالمارين تطرق البيوت وهي تتسول دون أدنى طائل وأخيراً لما أعيتها الحيل وسئمت ذل السؤال على غير جدوى عادت الى البيت فوجدت أمها جثة لا حراك بها

ركعت أولغا بجانب جثة أمها وانحنت عليها تقبل وجهها وشفتيها ثم لجّت طويلاً في البكاء وهي تتنهد تنهد الثكلى ولما فرّجت الدموع شيئاً من كربها انتصبت على قدميها ورفعت يديها نحو السماء وقالت « اليك أشكو يا مبدع الاكوان وفاطر السموات والارض جور الناس واستبداد الحكام العتاة فقد نفوا والدي الى أقاصي المعمور وقتلوا والدتي بين يديّ وهتكوا حرمة العذارى وتركوني شريدة وحيدة لا ملجأ لي سواك ولا مغيث لي إلاّك فان أخي بعيد عني والنور أصبح ظلاماً في عينيّ فانتقم لي بنقمتك من الظالمين المستبدين وخذ بناصري من الفجار والاقوياء وصب جامات انتقامك وسخطك على رؤوس الحكام العتاة انك أبي وأمي وأخي »

وما أتت على ختام هذا المقال حتى سمعت وراءها وقع أقدام فاذا بالمحافظ ملاكوف واقف وهو يضحك ضحك السخرية والهزوء فنفرت منه شقيقتي نفرة الظبي الجريح وقالت له «أأنت ههنا — ألاَ يتاح لي التملّص منك؟ ما أتى بك اليّ؟»

« لم يأت بي اليكِ سوى هيامي بك وشوقي الى لقياك » وهمّ بضمها الى صدره

« أبلغت بك القحة أن تتبعني الى غرفة الموت وتبدي لي حبك الممقوت وتهين العذراء أمام جثة والدتها ؟ »

« أما حان لكِ الآن أن تذعني بعد هذا الجفاء ؟» قال ذلك ودنا منها ليطوق خصرها بيديه

فانقلبت الظبية لبوة وتطاير شرر الغضب من مقلتيها فدفعته بيمينها وقالت له « أيها الظالم ملاكوف الحاكم العاتي والنذل المستبد انك وأمثالك عار على الانسانية والبلاد فأنتم علة شقائها وسبب خرابها والباعث على دمارها أنتم أنتم

الذين ترمون بهـا من حالق الى حضيض الذل والهوان وتأتون من المنكرات ما يندى منه جبين الادب بيد أنه ليأتين يوم سوف يرى فيـه الظالمون أي منقلب سينقلبون »

« اصمتي وإلا ندمتِ حيث لا ينفع ندم »

« أأصمت وأنت تحاول أن تلحق بي العار والشنار؟ — أأصمت وقد ضننت عليّ بكسرة من الخبز لسد رمق أمي التي أصبحت الآن أمامك جثة باردة ؟— انك أيها العاتي نذل مستبد يحاول انتهاك حرمة العذارى أمام أمهاتهن »

فتميز الجبرال ملاكوف غيظاً وتقدم اليها ليضمها بين ذراعيه فحاولت التملص على غير طائل ولما أعيتها الحيلة صرخت بأعلى صوتها « اليّ يا أصحاب الشهامة » فبادرها ملاكوف بضربة على فمها أدمته فأصابها على أثر ذلك دوار كادت تسقط بسببه الى الأرض ولكنها وجدت من الوهن عزماً ومن الضعف قوة فعادت الى العراك معه كلبوة في عرينها ولكن لم تلبث أن شعرت بخوار في عزمها واسترخاء في أعضائها لشدة الاعياء فتقدم اليها ورفعها عن الأرض ليحملها الى الغرفـة المجاورة فلما علمت مراده عادت الى الجهاد والنضال وفي أثناء ذلك سقط من ملاكوف الى الأرض مسدس لم يتنبه اليه الا بعد أن التقطته أولغا ولمـا حاول اختطافه لم يكن الا كلمح البصر حتى أومض شهب تلاه صوت انفجار رهيب في تلك الغرفـة المظلمة استرخت بعدها يد ملاكوف ومشى الى الوراء ليستند على جدار الغرفة وهو يقول « أتطلقين مسـدسي عليّ ؟ » ثم علا وجهه الاصفرار وسقط على الارض منتهك القوى والدم يجري من جرح في كتفه

ولم يكن جرح المحافظ خطراً لأنه بعد برهة يسـيرة من الزمن تمكن من النهوض على قدميه ثم أخرج آلة من جيبه وصفر بها صفيراً عسكرياً تراكضت الى جهته الشرطة من كل جانب فلما بلغوا الموضع التفت ملاكوف الى رئيسهم وقال له « خذ هذه الابنة النهليستية الى السجن واحضرها صباح غد الى ساحة المدينة حيث تجلد علناً سبعين جـلدة أمام جمهور المدينـة وايا كم امانتها على عجلٍ بل أرجئوا الجـلدة القاضية حتى تأتوا على تتمة العدد » فقيدت أولغا من

حيث كانت راكعة أمام جثة والدتها الى السجن الذي يُزج فيه القتلة والمجرمون

وكنت في مساء ذلك اليوم لم أزل في مدينه بطرسبرج أتنسم أخبار عائلتي فذهبت أولاً الى بيتنا الذي كان قصراً منيفاً ايام كان لايزال والدي في قعس مجده وصهوة عزه فوجدته مقفلاً خاوياً خالياً لا أنيس فيه ولا جليس فتذكرت إذ ذاك زمن نعيمي ورغدي وأيام سعادتي وهنائي وتفرست في تلك القاعة الباذخة التي قادني اليها والدي يوم تلقينا خبر مقتل قيصرنا المحبوب اسكندر الثاني حيث أقسمت يمين الاخلاص لجلالة ولده وأضعاً يسراي على صورته ورافعاً يمناي نحو السماء وبينما كنت على هذه الحال دنا مني رجل لا أعرفه ولعله من رجال البوليس السري وقال لي « أفقدت شيئاً يارجل فاني أراك واقفاً وقوف شحيح ضاع في التراب خاتمه ؟ » فأجبته « لقد فقدت يا مولاي أبي وأمي واختي وقصري وأملاكي » فوضع الغريب يده على كتفي وناداني باسمي قائلاً « أنصحك يا غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير ألاّ تمكث يوماً واحداً في بطرسبرج لانه متى وقع غضب القيصر على كبير أسرة وقعت جميعها تحت طائلة ذلك الغضب ولولا ما يختلج في صدري من عاطفة الحنان والشفقة لألقيت عليك القبض قبل أن تفوه بكلمة » ثم تركني وأنا في أشد الحيرة والذهول وذهب في طريقه لا يلوي على شيء

ولما عاد اليّ رشدي بعد هذا الذهول همت على وجهي في شوارع تلك المدينة العظيمة وتوجهت الى بيوت بعض أصدقائنا القدماء لعلي أقف على أثر لوالدتي وشقيقتي فأنكروني وأنكروا أبي قائلين انهم لا يعرفون في سائر الامبراطورية الروسية رجلاً بهذا الاسم وكانوا يبتعدون عني وينفرون مني نفورهم من المطعون ولا غرابة في ذلك لان غضب القيصر اقتل على من يحل به من كل داء عضال ولما سئمت قرع أبواب الأغنياء والطبقة التي يسميها العالم خطأً بطبقة الشرفاء سددت خطواتي نحو بيت حقير في أخريات أحياء العاصمة وهو بيت أحد خدامنا الأقدمين فلما رآني الرجل كاد يطير فرحاً وأسرع اليّ يقبل يديّ فقلت الحمد لله لانه بقي في مدينة تبلغ مليونين من النفوس رجلٌ لا يزال يعرف أسرة فلاديمير

فعلمت منه موضع والدتي وشقيقتي وعرض الرجل عليّ أن يصحبني ويقوم على خدمتي فأبيت ونصحته أن يبقى الامر مكتوماً وألا يذكر أنه التقى بي أبداً

ولم يكن سوى نصف ساعة من الزمن حتى كنت في القطار فبلغت البلدة صباح اليوم التالي وأخذت أسأل عن والدتي فلم يكن من يعرفها وبينما كنت سائراً في انحاء البلدة أبصرت عن بعد جمهوراً غفيراً من الناس قد اجتمعوا في ساحة كبيرة فبلغت الموضع وسألت عن سبب هذا الاحتشاد فقيل لي ان المحافظ أمر بجلد ابنة نهلستية ولما صرت على مقربة من موضع الجلد بصرت بمنظر ينفطر له الجماد فإني وجدت ابنة معراة الى وسطها مربوطة بمعصميها وخلخاليها الى قوائم من الخشب وصوتها يمزق كبد الجو وهي تستغيث وما من مغيث وتستنجد وما من منجد والسوطي يضربها سوطاً بعد سوط حتى سالت دماؤها وأصبح جلدها وما تحته من العضلات كتلة من اللحم الدامي ولما تفرست بها لأرى من هي هذه المنكودة الحظ واذا بها شقيقتي أولغا

فلعبت في رأسي سورة الغضب وتقدمت الى السوطي واختطفت من يده تلك الآلة الجهنمية التي اذا لامست الجسوم كانت بمثابة لدغات الأفاعي ولما سألته بأمر من يأتمرون في اتيان هذه المعرّة أجاب الرجل « بأمر المحافظ ممثل جلالة القيصر » وكان بين الأشياء التي أحملها سيف اهدانيه والدي لما أقسمت بحضرته يمين الاخلاص لامبراطوري فأخذت هذا السيف واستللته من غمده ووضعته على ركبتي وكسرته ثم التفتّ الى الحاكم وقلت له « أشهدك وهذا الجمهور عليّ اني في حلٍّ من قسمي لملكي وحكومته » ولما حاولت التقدم لانقاذ شقيقتي اعترضني الحاكم فضربته بجمع يدي وكدت أخنقه لو لم تتراكض الشرطة لانقاذه ففكوا قيود شقيقتي ووضعوني مكانها ثم انهالت عليّ الاسواط تمزق جسدي وهي شرٌّ من الحراب وبعد عدة جلدات أسالت دمي ومزقت ضلوعي فقدت الرشد وأصبحت في حال الغيبوبة ولما استفقت وجدت نفسي في سجن كبير التقيت فيه مساء اليوم التالي بشقيقتي أولغا التي قصّت عليّ ما أقص عليك فأقسمت في ذلك السجن لأنتقمنّ لنفسي وأسرتي ولأضعن العدالة في

كفي لأقتص من أولئك الحكام العتاة والمردة الظلام ما بقي فيّ رمق من الحياة وكان ذلك ما حداني أن أصير نهلستياً

الفصل الثاني

« سيبيريا الرهيبة »

و بعد بضعة أيام نقلوني الى السجن الشهير المعروف بسجن بطرس و بولص في مدينة بطرسبورج ذلك السجن الرهيب الذي نهاره ظلام دامس وحره برد قارس وآمال ساكنيه يأس وقنوط وأفراحهم ندب ورثاء هناك يتجسم لك الشقاء حتى تكاد تمسه بانامك وتسمعه بأذنك وتبصره بعينك وكأن الله غضب على البشر لايجادهم جحيماً على الارض فحوّل وجهه عنه ولقد بقيت بضعة أسابيع في هذا الجحيم الارضيّ بين جراح لم تبرأ وسقم لم يشفَ وظلام دامس وهواجس مترا كمة كادت تذهب بعقلي ورشدي حتى انه لما دخل عليّ السجان يوماً ما وأفادني أن قد قضى عليّ بالنفي الى أقاصي مناجم سيبيريا التي الحياة فيها موت والراحة شقاء تلقيت هذا الخبر بملء الارتياح كأنه بشرى أنزلت على قلبي المن والسلوى

وما انتصف ذلك الليل حتى أيقظوني ورفاقي التعساء لنكون على أهبة السفر فبلغ عددنا في ساحة ذلك السجن الرهيب نحواً من مائتي منفيّ من رجال ونساء وكان لوقع الاغلال في أرجلنا رنة تنفر منها المسامع وتنقبض القلوب فألبسونا ثياباً رمادية اللون ووضعوا على رؤوسنا قبعات من جلود الماعز وفي أرجلنا أحذية كبيرة تبلغ الركبة وعلى ظهر كل منا بساط خشن طيه صحن من المعدن وملعقة خشبية وفي صدره قطعة نحاسية عليها نمرته فعلقوا أغلالنا في وسطنا وربطونا الى بعضنا وسرنا على هذا المنوال تتبعنا عربانات من الخشب الصلب لوقع أصواتها دوي في الآفاق أشبه بهزيم الرعد وسط هدو الليل فكان ذلك أول مرحلة لنا نحو ذلك القبر الفسيح الارجاء المترامي الاطراف سيبيريا الرهيبة

فسرنا باسم الله مجرانا بين عصف الرياح وثوران الزوابع وسقوط الامطار ووميض البروق ولعلعة الرعود وسط ذلك الليل الدامس يتقدمنا فريق من الحراس يحملون بأيديهم المشاعل اذا تكلم أحدنا وقعت عليه السياط عقارب لذاعة تنهش منا الضلوع قبل الجلود فاضطررنا الى ملازمة الصمت التام وقد قرسنا البرد وتبلات ثيابنا من تساقط الامطار والثلوج ولما لم يكن مأذون لنا بالمحادثة كان كلامنا تنهدات وزفرات بعضها تلوَ بعض فتطلعت الى العلاء لأرى هل السماء ناظرة الينا فرأيت ان الله قد سدل بيننا و بينه حجاباً كثيفاً من الغيوم المتراكبة بعضها فوق بعض حتى لا تنذعر ملائكته من هذا المشهد الذي تنهلع له القلوب اذا وقع عليه بصرها ورأت جور الانسان على الانسان

هبطت بي التصورات من صُوَر الخيال الى عالم الحقيقة فوجدت نفسي سائرًا مع رفاق الشقاء وقد قضى عليّ بالنفي المؤبد مع الاشغال الشاقة دون أن يلفظ القضاء كلمته بشأني لأني لم أحاكم قط بل كان الحكم نتيجة استبداد ذلك العاتي ملا كوف الذي حاول انتهاك حرمة شقيقتي ووضعني تحت السياط لأنَّ أخاً رام انقاذ أخته وهي معراة تجلد والدم يسيل من جراحها تلك الأخت التي لم أعلم ما حلّ بها فضلاً عن ان والدتي قد لقيت منيتها وأبي نفي الى أقاصي مناجم سيبيريا ذلك الجحيم الذي لا فرق بينه و بين جحيم الآخرة سوى أن نار ذاك من لهب ونار هذا من ثلوج

فلبثنا على هذا المنوال نصل السير بالسرى ونحن نقطع مفاوز وقفاراً من الثلوج المنبسطة أمامنا لا يسمع وسط ذاك الهدو من صوت سوى وقع أقدامنا على الثلج الكثيف وما زلنا على هذا الطراز حتى قطعنا مئات من الاميال وكنا اذا سرنا بضعة أيام وصلنا الى مبيت مبني على قارعة الطريق لهذا الغرض وهو مؤلف من غرفة واحدة كلها أوساخ وأقذار وقد وضعونا فيها أكداساً بعضنا على بعض وكان كلما قطعنا قفارًا من الثلوج تبدت لنا قفار أعظم اتساعاً وأشد هولاً وأقرس برداً

و بعد مسير عدة أسابيع بلغنا أخيرًا الحد الفاصل بين روسيا أوربا وسيبيريا

آسيا حيث أقيم هنا لك بناء مستطيل الشكل على هيئة مسلة مصرية يتجه احد جوانبه نحو روسيا والآخر نحو سيبيريا فوقفنا عنده ردحاً من الزمن تتنفس الصعداء ونودع بلاداً هي أعز لدينا من أرواحنا وهناك رأيت منظراً تنفطر له المرائر لأنه لما أزفت ساعة الرحيل علا العويل وضجيج النحيب بين رفاقي من الرجال والنساء فكان بعضهم يركع أمام الجهة الأوربية منه يذرفون الدموع و بعض السيدات اللواتي أصبحن بعد مشاق السفر أشباحاً لأجسوما يتقدمن اليه و يقبلنه بحرارة وزفرات كادت تذيب تلك الثلوج والبعض منا حفروا الثلج والتقطوا قبضة من تراب الأرض والآخرون يرفعون أيديهم نحو السماء كأنهم يستغيثون بها ولكن من يسمع فان الله بعيد عنا على منصة مجده في أعالي السموات وجلالة القيصر جالس على عرش عظمته في أقاصي البلاد

ولم يكن سوى هنيهة من الزمن حتى انقطعت أصوات النحيب والعويل وعدنا الى سكون الموت وكنا كلما خطونا بضعة خطوات نلتفت الى الوراء لنشاهد هذا النصب الذي شاهد من ويلات الجنس البشري و بلاياه وكوارثه وخطوبه مالم يشاهده بناء قط في سائر انحاء الكرة الارضية بأسرها وعدنا الى مواصلة السير نقطع البيد والقفار حتى مرت علينا الأيام والأسابيع والشهور ونحن على مثل هذه الحال التعيسة ولا فائدة هنا من سرد أسماء البلدان التي مررنا عليها لانها غريبة الألفاظ على سماع الاجنبي وليس لها شيء من الشهرة في عالم التمدن

غير أنه لابد لي من وصف موضع واحد لا يزال رسمه راسخاً في مخيلتي لأن البلايا التي احاقت بنا هناك بلغت حداً فاحشاً تنزل بالانسان الى أقصى دركات التوحش والبهيمية حتى أننا نحن الذين ركبنا هذا المركب الخشن وقاسينا من الأهوال السالفة ما تندك له الجبال الراسيات رأينا أن سائر ما حل بنا من الرزايا قبل بلوغنا الموضع المشار اليه ليس شيئاً مذكوراً فاننا لما بلغنا توبولسك آخر محطة من هذه المراحل المتنائية أنزلونا في خان فسيح ضاق على رحبه بسكانه فانه لم يكن فيه سوى غرفة واحدة تتصاعد منها الروائح المنتنة تصاعد الدخان من الاتون فلما دخلناه وجدناه غاصاً بالمنفيين الذين تقدمونا الى ديار الشقاء

وكان بما فيه من الاقذار لا يصلح أن يكون حظيرة للمواشي والبهائم والانكى من ذلك أن اكثر ساكنيه كانوا مصابين بالحمى التيفوسية وكثير منهم في حال النزع ووجدنا عندوصولنا جثتين من جثث أولئك المنكودي الحظ مطروحتين على الارض بجانب الاعلاء الذين بقي فيهم رمق من الحياة وقد بدأ التعفن فيهما لان الرائحة التي كانت تنبعث منهما لا تطاق وليس من أحد يجسر على التذمر أو ابداء كلمة واحدة بهذا الشان لأن مثل هذه الجرأة ذنب جزاؤه أفاعي السياط

هذا هو الموضع الذي بلغناه تجديداً لقوانا من انتهاك الأعضاء وفرط الاعياء فنزلنا فيه ونحن ننظر الى بعضنا ولا نجسر ان نتبس ببنت شفة وكانت ثيابنا ممزقة وأحذيتنا مقطعة وأعضاؤنا مشلولة من الاعياء والجوع قد أخذ منا مأخذه لأنه لم يكن لدينا من الأكل سوى النزر القليل والطريقة التي كانوا يجرون عليها في تفريقه غريبة في بابها وذلك ان الحراس يدخلون بالأرغفة السوداء ويطرحونها على الأرض فكان المنفيون يتراكضون لالتقاطها تراكض الكلاب ويتخاطفونها تخاطف الذئاب على حين ان بين نساء فرقتنا عدداً من السيدات ربات الحجال ومخدرات القصور يباهي نسبُ أسرهنَّ الثريا سموًّا بل كنَّ في قومهنَّ أميرات خطرات النسيم تجرح خدودهنَّ ولمس الحرير يدمي بنانهن حكم عليهن بالنفي بحجة أنهن من طغمة النهيلست ولا ذنب لهن سوى أنهن وقعن تحت طائلة غضب حاكم من الحكام لذنب يشبه ذنب شقيقتي أولغا فاني أعلم علم اليقين أنه قضى على واحدة منهن بالنفي لأنها رفضت الاقتران بحاكم فحقد عليها ووشى بها وشاية أوردتها هذه الحالة التي هي شرٌّ من الحمام وكانت نفوس أولئك السيدات تكبر عن التقاط العيش على هذا المنوال وبعضهن يعجزن عن ذلك لضعف في البنية ولا سيما أثناء ذلك العراك الهائل الذي كان ينشأ أثناء اختطاف الطعام فيضطررن الى البقاء زمناً طويلاً وهن جائعات خائرات فكنت التقط ما يتاح لي الوصول اليه وأقدمه لهن

وما لبثنا في هذا المقام سوى زمن قصير حتى أصبحت الحياة علينا حملاً ليس في طاقة الطبيعة البشرية حمله فجثونا على ركبنا وتضرعنا الى الله بحرارة

ونحن نقرع صدورنا قرعاً شديداً وتوسلنا اليه أن يعاملنا بحلمه وفضله وغزارة شفقته و يعجّل في حتفنا لأن الذل قد بلغ منا مبلغاً لم نجرأ معه أن نطلب اعادتنا الى بلادنا إذ حسبنا أن هذا الطلب حتى لو كان سرًّا الى مبدع الكائنات ذنب لا يغتفر وأمنية ليس الى بلوغها من سبيل والظاهر أنه بقي لله أذن تسمع إذ أصيب في اليوم التالي نفر من عدادنا بالحمى وقضوا نحبهم وفي جملتهم بعض السيدات المشار اليهن وأصبحوا أحراراً لا تبلغهم ذرة من جور الانسان فحسد منا الاحياء الاموات وتطلعتُ الى السماء قائلاً ربّ والهي الى متى

الفصل الثالث

« تيهان سحيق »

كان الموضع الذي بلغناه المرحلة الاخيرة من هذا السفر البعيد الشقة غير أنه لما كنت في عداد أشقى المجرمين الذين يعيشون في الارض قتلاً وفساداً صدر الامر بابعادي الى أقصى مجاهل سيبيريا فودعت رفاق الشقاء وداعاً لا أمل بعده باللقاء ونقلوني الى فرقتي الجديدة وما بزغ فجر اليوم الذي ضرب موعد السفر حتى كنا جميعاً على أهبة المسير الى مناجم كارا وهي أقصى تلك الشقة وأكثرها هولاً حيث يصرف المنفيون حياتهم في نفق تحت الارض لا يبلغ فيه العامل شيء من شعاع الشمس أو الامل وكان لا يزال عليّ اللباس الذي ترديته في روسيا أوربا وقد أصبح خرقاً بالياً بعد سفر نيف وأربعة أشهر فربطوا سلاسلنا بعضها الى بعض وجروا بنا يسوقوننا الى حتفنا سوق النعام

فتوالت علينا الايام والليالي ومرّت الاسابيع والشهور مرّ السنين تظلنا سماء لا تبصر وتقلنا أرض لا تشفق. تطلع الشمس على وجوه منا شاحبة وتغرب على قلوب منقبضة و يسدل الليل حجابه على يأس وقنوط ونغمض أجفاننا على ذلة وشقاء نتخذ الثلج فراشاً والريح غطاءً وبعد أن قطعنا هذه المسافات المترامية

الابعاد حلوا الوثق التي تربط سلاسلنا بعضها الى بعض وسمحوا لنا أن نمشي زرافات ولبثنا نواصل السير على طريق أركوتسك المتنائية الأطراف

وبعد مسيرة أربعة أشهر من توبولسك وثمانية أشهر من بطرسبرج بلغنا مناجم كارا الرهيبة حيث سلمنا الحراس الى محافظ تلك الناحية التي تخيلنا عند وصولنا اليها أنها منتهى العالم فاسترحنا يوماً واحداً من عناء الاعياء ثم أخذونا في اليوم التالي الى تلك المناجم المظلمة التي ترتقص لهولها الفرائص وتهلع القلوب فأدخلونا في دهليز عميق تحت الارض كله برد قارس ورطوبة قتالة وصمت رهيب فكان نفسي يتجلدعلى شاربيّ وعلى ذقني بلورات من الجليد ثم أعطونا أدوات العمل فلما دخلت هذه المناجم اول مرة استولى عليّ يأس شديد لا أقدر أن أصفه وظننت نفسي اني في حلم أو اني انتقلت الى دار الابدية والآن أعذب في الجحيم البارد ومن حولي الأبالسة يعذبونني تارة باللعنة وطوراً بالسياط ولكن لما رأيت غيري أيضاً في هذا الجحيم تعزيت قليلاً وأخذت أشتغل مع هؤلاء المجرمين الذين نصفهم من أسفل طبقة الهيئة الاجتماعية سفّاكو دم وقتلة ولصوص والنصف الآخر من أسماهم تهذيباً وأشدهم تنوراً ولطفاً وأرقاهم ادراكاً وعقلاً وهم الذين يطلق عليهم لقب المجرمين السياسيين فالآراء الحرة في روسيا كالقتل كلاهما ذنبٌ عظيم لا يغفر

فكنا نقضي نهارنا بالأشغال الشاقة والاغلال في أرجلنا والأدوات في أيدينا فاذا انتصف النهار رموا الينا كسرة من الخبز نأكلها ونحن ننظر إلى بعضنا لانفوه بكلمة ومتى جنّ الليل أخرجونا الى حظائرنا لأننا أصبحنا حيوانات داجنة نبيت فيها حتى الفجر ثم نعود الى المناجم دون ان يتاح لنا رؤية الشمس أو شيء من شعاعها ولو وددت وصف سائر ما حاق بنا من البلايا والرزايا لاقتضى لذلك مجلد برمته

ولم يطل بي الوقت حتى أخذت أميز بين القتلة والمجرمين السياسيين لأن دماثة هؤلاء وتأدبهم في المقال وطلاوة حديثهم واحتمالهم هذه المشاق بالصبر وهم رابطو الجأش كانت دلالة واضحة على مكانتهم في الهيئة الاجتماعية ونباله

مقاصدهم السياسية وكان بين عداد هذا الفريق رجل أخى الكبر صعدته وبيّض لمته أظهر نحوي انعطافاً كثيراً ومودة فائقة يشدد عزمي عند الخوار و يشجعني عند اليأس ولما تعارفنا في المرة الأولى نظر اليّ وقال « هل سرجيوس فلاديمير من ذوي قربك ؟ » فقلت « هو أبي يا مولاي أتعرف شيئاً عنه ؟ » فترطبت عينا الرجل بالعبرات وأطرق برأسه الى الأرض دون أن يفوه بكلمة قط فهاج ذلك هواجسي وامسكت بكلتا ذراعيه قائلاً له « أستحلفك بالله العلي العظيم أن تصدقني الخبر — أين التقيت بوالدي وماذا تعرف عنه ؟ »

فأرسل اليّ الرجل نظرة كلها شفقة وحنان وقال « اذا كان لابد من معرفة ذلك فأنا أخبرك :ان أباك كان من جملة رفاقي يوم ودّعنا بطرسبرج منفيين الى هذه الاصقاع فعلمت منه في أثناء الطريق أن بعض أعدائه وحساده قد وشوا به الى جلالة القيصر أنه من أصحاب الدسائس السياسية وهو لا يعلم شيئاً من ذلك حتى مساء يوم بينما كان الناس مدعوين الى ليلة راقصة عنده والأنغام الموسيقية تشنف الآذان والناس بين جذل وطرب اذ دخل على حين فجأة نفر من ضباط البوليس وألقوا القبض على والدك فانقلب سرور القوم الى أتراح ثم قيد دون محاكمة وأرسل الى قلعة بطرس و بولص حيث صدر بعد ذلك الامر بنفيه الى مناجم سيبيريا المظلمة فكنا من رفاق السفر نتشاطر الأحزان والرزايا و بقينا نحواً من ثمانية أشهر حتى بلغنا هذا الفردوس الذي نحن فيه الآن وكان دوماً يهزّ بذكرك ويسأل الله أن يبقيك عوناً لأمك وشقيقتك وهو يظن أنك في مأمن من جور الحكام الطغاة ولكنه لم يلبث بعد بلوغه هذه المناجم أن اعترته علة أودت بحياته فقضى وتملص من العذاب الذي لانزال نحن فيه ولقد سلمني قبل وفاته كتاباً مختوماً طلب مني قبل تسليمه اليّ أن أقسم له الايمان المغلظة ألا أفتحه بل أبعث به اليك مع أحد الحراس الذي أظهر عطفاً عليه وها هو لايزال الآن في جيبي فتعزَّ لان الله قد عامله بشفقته فقصر عذابه ونقله الى دار الأبدية حيث لا تبلغه ألسن الوشاة ولا أيدي الظلاّم »

و بعد أن قصّ عليّ هذه الفاجعة أخرج من جيبه محفظة فيها الكتاب

المشار اليه ثم سلمني أيضاً خاتم والدي فقبلته والدموع تساقط على وجنتي تساقط الطل فلما فتحت الكتاب قرأت فيه ما يأتي

فلذة كبدي غورتشا كوف

أحرر لك يا بنيّ هذه الأسطر من دار الغربة والشقاء وأنفاسي معدودة بالدقائق لأن أجلي قد دنا وبعد هنيهة أبرح هذا العالم عالم الشقاء وأتخلص من مشقات النفي ومناجم الجحيم ولا بدّ أن يكون قد بلغك ما حلّ بي من ضروب النكال وعوامل الجور لوشايات لفقت زوراً وبهتاناً فلقد وقع عليّ غضب مولاي القيصر وسخطه واني سررت بان قد وقع عليّ ذلك وأنت بعيد عني لا تصل اليك أيدي البغاة واعلم أن لي في مصرف صديق صدوق في موسكو يسمى تريبولوف لازنسكي خمسين مليون روبل موضوعة باسمك لا يعلم بها أحد وسوف ترى الرجل شهماً غيوراً أبيّ النفس فاذهب اليه واستلم هذه النقود وكن سعيداً ووالدتك وشقيقتك واني أستودعك الله »

والدك المحب

سرجيوس فلاديمير

وبعد مطالعة الكتاب شكرت الرجل بعيون ملؤها الدموع وقلت له « ألا تعرف مدفنه؟» قال «لا أزال أتذكر البقعة» فأشار اليها وكانت داخل منطقة الحرس فسرنا اليها ولما بلغتها ركعت على الأرض وصليت الى الله بحرارة ودموع وناجيت نفس والدي في قبره وهناك نذرت نذراً رهيباً اني لأنتقمنّ لأبي وبيتي نقمة تتحدث بذكرها الركبان

ولما طفح السيل حتى جاوز الربى وزهقت الروح حتى بلغت التراقوة عقدت النية على الهرب ولو كان بذلك حتفي ولكن انى للمنفيين في سيبيريا الهرب والاغلال في أرجلهم والحراس صفوف حولهم والشقة مترامية البعد وكلما التقيت برجل من القوزاق طلب منك جوازك وحدّق فيه ببصر حديد وان فرار العصفور من قفص محكم الصنع لأسهل بكثير من فرار سجين سيبيريا

ولبثت في هذه المناجم سنتين من الزمن وأنا كلما جال في خاطري الفرار رأيت سجني أشد أحكاماً وحراسي أكثر عدداً وبطرسبرج ابعد مني فالا غير أنه

حدث أن الحكام اكتشفوا مناجم جديدة فيما وراء كارا ولما كنت في عداد أشقى المجرمين وقعت عليّ القرعة مع بعض رفاق بالتوجه الى هذه المناجم الحديثة العهد فصحونا في فجرذات يوم فربطوا اغلالنا بعضها الى بعض وأخذنا نقطع البيد والقفار وبعد مسيرة عدة أسابيع حلوا العرى التي تربط سلاسل الفرقة وسمحوا لنا بالمسير أفواجاً بين الحراس حتى أمسينا ذات ليلة بجانب حرج كثيف من الأشجار المشتبك بعضها ببعض فنزلنا للمبيت وكانت هذه أول فرصة تسنح بالهرب فعقدت العزم وصممت على القيام بذلك دون التبصر في ما يترتب على ذلك من الأهوال والأخطار

وكان الليل حالكاً جداً والبرد قارساً والرياح تهب هبوب العواصف والليل رهيباً حولنا يسمع وسطه حفيف الاشجار الذي كان في آذاني أنغاماً شجية فصبرت الى أن انتصف الليل وسكنت كل حركة ونام سائر رفاقي فلم يبق صوت من يسمع وكانت ظهور الحراس الينا وأوجههم الى الفضاء فعلمت أن قد دنت تلك الساعة الرهيبة التي يتوقف عليها اما حريتي أو حتفي فاصطبرت قليلاً ريثما أخذ التعب من الحراس مأخذه فرأيتهم يترنحون على بنادقهم ترنح السكران من فرط الاعياء فوقفت على قدميّ بكل تأنّ وربطت سلسلتي في منتصف وسطي من الامام حتى لا يسمع لها صوت وجريت كالسهم المنطلق وسط ذلك الظلام الدامس نحو الحرج الذي لم يكن بعيداً عنا أكثر من رمية حجر فلم يكن سوى مثل غمض الجفن حتى أدركته وأنا لا ألوي على شيء ولا التفت ورائي لأرى هل ابصرني الحراس أم لا بل ثم لبثت راكضاً جهد الطاقة وسط تلك الاشجار الباسقة والانجم الكثيفة على خط مستقيم نحو ساعة من الزمن وقفت بعدها دقيقة أتنفس الصعداء ثم واصلت المسير لا أعطف يميناً أو شمالاً وظللت كذلك وأنا أجد في المسير الى أن تبلج وجه الصباح وظهرت الغزالة في الأفق تلقي أشعتها الذهبية على تلك الارجاء العجيبة وعند ذلك خرجت من تلك الغابة الكثيفة ووجدت نفسي على مقربة من بيت منفرد فطرقت الباب فلم يكن من مجيب فدفعته بشدة فانفتح أمامي ولما دخلت الغرفة وجدت منظراً رهيباً تقبضت أعضائي لرؤيته فان الموضع

كان مهجوراً لا أنيس فيه ولا جليس وعلى الارض جثة رجل ميت فدنوت منه وهززته بيدي فلم يبد حراكاً فوضعت أصابعي على قلبه فلم يكن هنالك من حركة قط فتفرست فيه فاذا الرجل ميت منذ بضع دقائق فقط لأن ملمسه لم يزل سخناً وامامه رق فيه هذه الكلمات

« لا فائدة من احضار الطبيب لأنك عند ما تعود اليَّ أكون قد فارقت هذه الحياة فأستحلفك بالله أن ترسل الاوراق التي في جيبي مع رسول أمين مرسكي لوبانوف »

ففتشت في جيوب الرجل ومنطقته فوجدت أوراقاً مالية بقيمة ألفي روبل وثلاثة كتب مختومة جميعها بخاتم القيصر ومعنونة باسم الجنرال الترسكي حاكم مديرية كوليمسك في نواحي القطب الشمالي من مقاطعة باكوتسك حيث هنالك فريق من المنفيين ووجدت أيضاً جوازاً باسم « مرسكي لوبانوف رسول من جلالة القيصر في مهمة دولية الى حاكم كوليمسك » فلم أتردد لحظة في الخطة التي صممت الجري عليها فمزقت أولاً الرق الذي كان أمام لوبانوف ثم فتشت في المنزل فأتيح لي العثور على مبرد تمكنت به من برد الاغلال التي كانت في رجليّ ثم خلعت ثيابي ووضعتها في النار التي كانت في الموقد ثم جردت الميت من ملابسه الرسمية ووضعتها عليّ وتمنطقت بمنطقته التي تتضمن الاوراق المالية والكتب الرسمية مع مسدسه وذهبت الى الاسطبل حيث كان فرس الرسول فأسرجته في مثل غمض الجفن وعلوت صهوته واتخذت الوجهة المطلوبة قبل أن يعود صاحب المنزل ولم يكن سوى بضع دقائق حتى التقيت على الطريق بفرسان منتشرين في نواحي ذلك الحرج وما حوله من الفلوات يركضون بخيولهم الى كل جانب فلما رآني أحدهم أعمل المهماز في شاكلة الجواد ودنا اليّ وقد أدّى التحية العسكرية وسألني اذا كنت قد التقيت أثناء الطريق بأحد المسجونين الذي قد فرَّ منهم خلس الليل الماضي فأجبته أني كنت نازلاً في جوار هذا المنزل ولم أشاهد أحداً قط فتراجع عني وقد انقسم ورفاقه فرقاً في انحاء مختلفة وسرت في طريقي وأنا أضحك في نفسي من غرائب الاتفاق

وقد رأيت أنه لا بد لي من الذهاب الى كوليمسك لان الجواز الذي بيدي باسم لو بانوف موقع عليه في كل محطة من المحطات الرسمية بامضاء الحاكم مع التاريخ فاذ عدتُ توًّا الى بطرسبرج اكتشف الحكام دخيلة الامر لأنه لم يكن قد مرّ الوقت اللازم لوصولي الى الموضع المشار اليه والعودة منه فذهبت أقطع الجبال والثلوج الي أن بلغت المقاطعة المطلوبة بعد مسيرة شهرين ودخلت كوليمسك وهي بلدة مؤلفة من أكواخ حقيرة المنظر والبرد فيها شديد الى درجة قصوى اذ الدرجات تتراوح هناك بين ست فوق الصفر وثلاثين تحته والشتاء يبتدى في اغسطس ولا ينتهي حتى شهر مايو والأغذية قليلة جدًّا واذا قام المسافر اليها من روسيا أو بالا يبلغها الا بعد مرور سنة ونصف من المسير المستمر

وكان وصولي الى كوليمسك بشرى نزلت على قلوب أهلها نزول المن والسلوى لأن الكتب المختومة بخاتم القيصر من بطرسبرج كانت كما كنت أنتظر أوامر بالعفو عن كثيرين من المجرمين السياسيين في تلك الأصقاع فلما انتشر هذا الخبر أقيمت الأفراح والاحتفالات وتبدت لوائح البشر على أوجه القوم فكنت أنى ذهبت وكيف سرت يحملونني على الاكف ويجلونني ويحيونني تحية المرؤوس لرئيسه وأنا أضحك سرا وأقول في نفسي مكره اخاك لا بطل

فاضطررت للاقامة في هذا الموضع عدة أيام الى أن يكون الحاكم قد أنجز تقاريره الرسمية الى بطرسبرج ولكنه اعتراني أخيرًا ضجر شديد وخشيت انكشاف أمري فتقدمت صباح ذات يوم الى الحاكم ورجوته أن يحرر اللازم على جوازي لأني قاصد الذهاب بضعة أيام الى موضع في جوار البلدة لكي أرى صديقًا لم أره منذ أعوام فطرت فرحًا لما أجاب الحاكم سؤلي وامضى جوازي بخاتمه فما صدقت أن استلمته حتى علوت صهوة جوادي وأخذت أجد في السير قاطعًا الفيافي المقفرة والجبال الشامخة والاودية العميقة وأنا أظن أني معجل في نيل أمنيتي الوحيدة وهي حريتي ولم أعلم أني في ذلك كمن كان يسعى الى حتفه بظلفه ولما أنضى المسير جوادي مات من شدة الاعياء بعد سفر جاوز شهرين من الزمن فاضطررت الى المشي على الأقدام على شوامخ الجبال الغير المطروقة

أقتات بالأعشاب وأوراق الأشجار حتى براني السير وأعياني السغب وكدت أموت جوعاً واعياء ولكن بارقة الرجاء أحيت مني ميت الآمال إذ بلغت ذات يوم قنة جبل رأيت من شامخ ذراها أمواج الاقيانوس الباسفيكي تتمعج تحت أشعة الشمس كذوب اللجين

ولما بلغت الساحل مساء وجدت هناك مدينة على جانبه تسمى باترو باوفلوسك وشاهدت عند مدخلها مركباً راسياً في جوارها فسألت عنه فقيل لي هو مركب صيد من كندا فعقدت النية على بلوغه وركوبه ولكن علمت أنه لايسافر الا في صباح اليوم التالي فصممت على البقاء تلك الليلة في البلدة والتوجه الى مركب في الصباح التالي وبعد أن سرت برهة في أسواقها وجدت أحد أنفار البوليس السري يتقفى أثري ولم يدر في خلدي ان الأسلاك البرقية قد حملت اخباري الى هذه الاصقاع المتنائية فرأيت الخطة المثلى أن اتوجه بنفسي الى رئيس الشرطة واريه جوازي حتى اذهب بكل مظنة عن نفسي فلما دخلت عليه وجدته وحده جالساً منفردا في غرفة فأخرجت جوازي وقدمته اليه فلما وقعت عينه عليه تبسم تبسم السخرية وتطلع اليّ قائلاً « ان رسول جلالة القيصر لو بانوف قد توفى ولذلك القي الآن القبض عليك » فلم يتم هذه الكلمة حتى خفق فؤادي وعلتني صفرة الوجل واصطكت ركبتاي وقلت في نفسي أهذه نتيجة اسفاري ومشقاتي وعذابي أن يقبض عليّ في ذات اللحظة التي ظننت نفسي فيها حرًّا فلم يثنّ رئيس الشرطة كلمته التي فاه بها حتى انطلقت كوميض البرق من غرفته وما بلغت الباب الخارجي حتى سمعت وقع الأقدام ورائي وكان قد جن الليل وأرخى الظلام ستاره فهمت على وجهي في الأزقة والشوارع حتى بلغت أخيراً موضعاً رأيت فيه قارباً مربوطاً الى شجرة فلم يكن سوى لحظة من الزمن حتى قطعت حبله فحملني التيار الى ما بين أشجار ملتفة فوقي وأعشاب سترتني عن العيون فسمعت ورائي جلبة القوم وصراخهم بل كادوا يبلغون مخبأي ولكن الظلام والأشجار كانت لي ستاراً كثيفاً فلبثوا على هذا المنوال نحو ساعتين من الزمن رجعوا بعدهما بخفي حنين ولما أيقنت ان لم يبق هنالك من خوف عليّ أخرجت قاربي من وسط تلك الاجام الكثيفة

وأخذت أجذّف بكل ما بقي فيّ من العزم الخائر حتى بلغت المركب فصعدت اليه وشرحت لربانه حقيقة أمري وقصصت عليه شقائي ومذلتي فرقّ لي وعطف عليّ وجعلني في عداد قومه ولم ينتظر حتى طلوع الصباح بل أمر بالمسير بعد وصولي اليه بساعة من الزمن ولما أخذت السفينة تشق عباب الأمواج ورأيت باترو باوڤلوسك تبتعد عني تدريجًا تنفست الصعداء وشعرت بسعادة ونعيم لم أشعر بهما قط في ماضي أيامي لأني قد أصبحت حرًّا وبعد سفر نحو شهر من الزمن نزلت في ڤيكتوريا من فانكوفر حيث بلغت بعدها بلاد الانكليز حيث الحرية ترفرف بأجنحتها كملاك الرحمة

الفصل الرابع

« مرتع البغي وخيم »

قليل من الناس من يعلم أن مدينة لندرا أعظم مدائن العالم المتمدن واكثرها احتشادًا بالسكان وأعظمها علمًا وأسماها مدنية وأوسعها حرية وأبذخها مجدًا هي أعظم مركز لاعظم جمعية ثوروية في سائر انحاء المعمور فان في قلبها اكبر عظماء ثوروي النيهيلست ونخبة رجالهم وجلة شبانهم وأشرف أسرهم يضمهم اكبر نوادي الثورة اذا انتظموا فيه عقدًا أخرجوا هنالك من تصورات الخيال الى عالم الحقيقة من جرأة الاقدام والاستقتال في سبيل الحرية ما تهتز له الملوك على عروشها وتهلع قلوب الأبطال والقواد بين جيوشها وتتحدث بمعجزاته الجرائد وتسطر من هوله الأقلام ما لو وقع على جبل لتصدّع من خشيته. هنا السلطة السامية التي حيرت العالم بمعجزات أعمالها وقصرت كل سلطة عن بلوغها لانها لاتعرفها وعجزت الألسنة عن طعنها لانها لاتبلغها. هنا تدور المناقشات السياسية والمباحثات الفوضوية تحت أستار الدجى في ليل مدلهم بالظلمات فاذا ما انتهى كل ذلك وانتصب الرئيس على منصته وأصدر حكمه بالاعدام أو التدمير أو

الارهاب كان القضاء المبرم ليس له من رادع او انقضاض صاعقة ليس الى اتقائها من سبيل

الى هذا النادي الرهيب سددت خطواتي وفي يدي كتاب توصية من أحد العمال الثورو بين الذين أتاح لي الحظ لقياهم في ڤكتوريا فلما علم الرئيس بول بتروف حكايتي والمصائب التي حلت بأسرتي والمشاق التي ركبتها قبل بلوغي لندرا تقدم اليّ وصافحني وأنزلني في ذلك النادي على الرحب والسعة وضمد جراحي ببلسم العزاء وأغدق عليّ احسانه اغداق الامير الكريم

وكان أول أمر وجهت اليه الهمة بعد الاستراحة من عناء السفر الحصول على المال الكثير الذي كان قد أودعه والدي في مصرف لازنسكي ذلك الرجل الذي وصفه والدي في رقيمه لي بالشهم الكريم الاخلاق النادر المثال فبعثت اليه بكتاب أخبره بحقيقة الامر وأرجوه فيه أن يرسل المال تحويلاً على بنك انكلترا ولبثت أنتظر الجواب و بعد انتظار على أحر من الجمر وردني الجواب كما يأتي

« عزيزي الموسيو غورتشا كوف فلاديمير »

وردني كتابك وفيه تدعى وجود مال في مصرفي نيف وخمسين مليون روبل وضعها والدك باسمك فعجبت من ذلك كل العجب اذ لا معرفة سابقة لي بأبيك ولم يوجد بيني و بينه شيء من المعاملة على الاطلاق ثم أخبرك أن رأس مال المصرف كله لا يبلغ مليون روبل فأنصحك في الختام أن تنسى مثل هذه الاحلام واقبل احتراماتي

لي الشرف ياسيدي أن اكون خادمكم المطيع

لازنسكي

فما طالعته حتى صار النور في عينيّ ظلاماً وشعرت كأن ناراً تحرق وجنتيّ واعتراني تقبض شديد من فرط الغيظ فحرقت عليه الأرّم ولبثت في حال الذهول نحو ساعة من الزمن ولما عاد اليّ رشدي شعرت أن لا طاقة لي على شيء فان الأوراق المالية التي كانت في يد والدي فقدت بعد القاء القبض عليه وسصادرة بيته وأملاكه حتى أنه لو ثبت وجود المبلغ المذكور لوقع في يد الحكومة الروسية

اذ أني من المغضوب عليهم والضالين

ولما سكنت مني سورة الغضب رأيت أن أحرر الى لازنسكي كتاباً آخر ضمنتهُ ما ذكر لي والدي بشأنه من دماثة الأخلاق وسمو السجايا واخلاص المودة ورجوته أن يبعث لي بشيء من المال في الحاضر فكان جوابه على ذلك ألا اعود الى مخاطبته بهذا الصدد لأن وقته أثمن من الاشتغال والرد على آمال فارغة وقصور في الهوآء

ولما أعيتني الحيلة توجهت ذات ليلة الى نادي الثورة وهي الليلة المعينة لاجتماع أكابر رجالها وأصحاب الكلمة النافذة بين سائر طغمة النهليست فوجدت النادي غاصاً بالقوم فبعد أن أنجزوا ما امامهم من المهام انتصبت وقصصت عليهم أمري مع لازنسكي وانكاره المال الذي لي ضمنه وقيمته خمسون مليون روبل فلما أتيت على تتمة المقال حدث صمت رهيب في ذلك النادي الكبير ورجمني القوم بالاحداق حتى كدت أسمع نبضات قلبي وأخذ الاعضاء ينظرون الى بعضهم وعليهم لوائح الحيرة والذهول لأنهم لم يروا حتى الآن في عدادهم رجلاً بمثل هذا الاثراء العظيم واكبروا خيانة الرجل لازنسكي وعلموا أن بين عدادهم الآن رجلاً يهز بماله روسيا من اقصائها الى اقصائها ثم تلى ذلك غوغاء ومناقشات طويلة قر قرار الرئيس في ختامها على أمرين أولهما الاستخبار من مركز جمعية الثورة في موسكو عن حقيقة هذا الادعاء ومعرفة رأس مال مصرف لازنسكي

فلم يمر على هذه الجلسة سوى شهر واحد حتى ورد كتاب رئيس الجمعية في موسكو وفيه يقول أن تقارير جواسيس الجمعية أسفرت عن أن والدي سرجيوس فلاديمير كان شريكاً في مصرف لازنسكي وأن رأس مال هذا المصرف بين عقارات وأوراق مالية ونقود لا يقل عن مائة وعشرين مليون روبل

ولما ورد هذا الجواب دعى الرئيس الأعضاء الى جلسة فوق العادة تقرر فيها أن يطلب من لازنسكي باسم عمال الثورة المبلغ المشار اليه فاذا أبى يهدد فاذا أصرَّ يرهب بالديناميت فاذا بقي مصرًّا يحكم عليه بالاعدام وتتخذ نفس هذه الوسائل لتحصيل المال من ابنه وريثه وبعد هذا التفت اليّ الرئيس وقال لي

« ياغورتشا كون سرجيوس فلاديمير كن مطمئناً »

ومضى على هذا القرار عدة أسابيع التقيت أثناءها مرارًا بالرئيس بتروف فلم أفاتحه بشيء من هذا القبيل ولا هو ذكر لي شيئاً كأنه لم يحدث ذكر لذلك الامر الجلل بيدانه وردتني ذات يوم جريدة النوفي فريميا كالعادة ولما فتحتها طالعت في احد أعدادها ما يأتي

« خطب جلل ! »

« تلقى المصرف الشهير في موسكو المعروف بمصرف لازنسكي انذارًا من أحد أعضاء النهلست يطلب فيه مبلغًا طائلاً من النقود فاذا أبى يرهب بالديناميت فاذا بقي مصرًا يقتل بعد اسبوع فسلم لازنسكي هذه الأوراق الى ادارة البوليس ولكن مع كل الاحتياطات التي اتخذتها الادارة نسف بناء المصرف ليلاً بالديناميت كما أتينا على بيانه في الاعداد الماضية حتى اضطر صاحبه أن ينقله منذ اسبوع الى جانب ادارة مركز البوليس التي اتخذت احتياطات أشد وأقوى من ذي قبل لأن نفرًا من البوليس كان حراسًا على الابواب الخارجية بينا أن عددًا من البوليس السري كان على الدوام داخل البناء ولكن كل هذه الاحتياطات لم تغن فتيلاً فانه نحو الساعة الحادية عشر هذا الصباح بينما كان عمال المصرف يقومون بأشغالهم سمع صوت دويّ هائل في غرفة صاحب المصرف وانفجار عظيم تهدمت به سائر جدران المنزل وتعطل كثير من المنازل المجاورة لأن الاهتزازات بلغت آخر الشارع وقتل خمسة من العمال وجرح اثنا عشر أما لازنسكي السيء البخت فان جثته تطايرت في الفضاء ولم يعثر منها الاّ على بعض أعضاء منثورة وقد استولى الهلع على سائر مصارف موسكو وكثير منها أقفلت عند سماع هذا الخبر الرهيب ويظن أن اليد التي اقترفت هذه الجريمة الفظيعة هي أحد العمال أنفسهم إذ أنه منذ نحو خمسة أيام دخل عامل جديد من أمهر الكتبة والخبيرين بالمصارف الى مصرف لازنسكي وقام باعباء أشغاله على غاية الدقة والانتظام حتى أعجب به سائر المستخدمين وقد شوهد صباح هذا النهار داخلاً وفي يده محفظة كبيرة

و بعد أن لبث حتى الساعة العاشرة ونصف صباحاً استأذن بالانصراف لغرض ما وحتى الآن لم يعد واذا لم يتخذ البوليس احتياطات أشد مما عودنا عليها لا يمر حين من الزمن حتى تصبح موسكو فوضى لا نظام لها وخصوصاً لأنه قد ورد على ابن الفقيد بعد ظهر اليوم انذار شبيه بالانذارات التي وردت من قبل على والده»

و بعد اسبوعين من الزمن طُلب الاعضاء العاملون الى حضور جلسة خاصة لم يذكر موضوعها في رقاع الدعوة فلما انتظم عقد النادي وأنجز الأعضاء ما تأخر من الأعمال والقرارات الهامة في الجلسة السابقة وقف الرئيس وقال بكل هدو وسكينة « ليتقدم الى هذه المنصَّة أحدكم غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير » فعلت وجهي صفرة الوجل واصطكت ركبتاي من الجزع خوف وشاية بي فلحظ الرئيس وتبسم تبسم الوقار دون أن يفوه بكلمة فجريت الى المنصة كمن يجري الى حتفه لأنه كان يبلغني روايات غريبة عن اغتيال النهلست بعضاً من الاعضاء الذين يشتبهون بصدقهم واخلاصهم ولما بلغت المنصة وقف الرئيس وقال «أهنئك يا عزيزي غورتشا كوف لكونك قد أصبحت رجلاً تبلغ ثروته خمسين مليون روبل ثم وضع في يدي رقاً فاذا هو حوالة باسمي من ابن لازنسكي على مصرف انكلترا بالقيمة المذكورة فلما طالعته اعترتني دهشة شديدة وارتعاش عظيم في أعضائي من شدة الجذل ثم التفت الى الرئيس وقلت له « لا أشكرك على هذا الصنيع العظيم بل أقول لك أنه سيكون صباح غد في مصرف انكلترا خمسون مليون روبل تنفقها جمعية الثورة في السبيل الذي تراه موافقاً لاصلاح روسيا » فحصل أولا بين الاعضاء سكوت تام كأن على رؤوسهم الطير ثم تلى ذلك ضجيج استحسان اهتزت له ارجاء ذلك النادي الرهيب ثم تقدموا اليّ يقبلونني ويحملونني على الاكف

الفصل الخامس

« وقع السهام ونزعهنّ اليم »

لبثت بضعة أسابيع وأنا في نادي الثورة لا عملَ لي سوى التعرف بأعضاء الجمعية والتجول في أنحاء العاصمة لاختبار طبائع أهلها ومعرفة احيائها وكان ذلك سهلاً عليّ لأني تعلمت اللغة الانكليزية والفرنساوية منذ نعومة اظفاري فضجرت أخيرًا من البطالة وتقدمت الى الرئيس بتروف وسألته أن يكلفني بالقيام بخدمة ما فتبسم وقال لي ان سائر الخدمات التي يقوم بها أعضاؤنا محفوفة بالمشقات والمخاطر وانها قد تفضي أحيانًا الى حتفهم فأجبته أني عالم بكل ذلك ومستعد لكل بلية لأني وقفت نفسي على أن آخذ بثار أبي وأمي وشقيقتي وان قد اعتراني الآن الضجر والملل حتى كدت أعاف الحياة فتطلع اليّ نظرة كلها إعجاب وهز كتفي قائلاً « يا غورتشا كوف ان امامك مستقبلاً مجيدًا فانك من بيت عريق في نسبه كبير في حسبه وافر في ثروته وقد رأيناك عنوان الاخلاص والمروءة والشهامة وستصير بعد قليل زعيم عصابة النهلست الأعظم يأتمر بامرك ألوف من البشر وتعنو لحكمك رقاب الامراء والحكام اذا أصدرت أمرًا في هذا النادي كان صاعقة على أعدائك فيحل بهم الوبال دون أن يشعروا من أين يأتي واعلم أنه لا يوجد الا ثلاثة من البشر لهم السيادة المطلقة في الكون وهم قيصر روسيا ورئيس الجزويت وزعيم النهلست بيدانه لا بد لك من الصبر والتمرن على العمل والوقوف على الدخائل وسبر طباع البشر حتى تصير أهلاً لهذا المركز الخطير الذي تخلفني فيه بعد ذهابي الى روسيا لغرض سوف تقف عليه في حينه » فشكرته وقلت اني سأكون له أطوع من بنانه

وحدث بعد هذا ببضعة أسابيع أن الجمعية عهدت اليَّ أول عمل خطير وتفصيل ذلك أن جمعيتنا في لندرا انتخبت واحدًا من عدادنا يسمى ايڤان غريغوروڤتش للذهاب الى بطرسبرج حاملاً تعليمات سرية الى مركزنا في

عاصمة روسيا فغير اسمه وادعى انه تاجر فرنساوي يحمل جوازًا فرنساويًا وزيادة في كتمان الأمر لم يسر على الطريق العادية بين لندرا و بطرسبرج ولكنه توجه اولاً عن طريق البحر الى اودسا على عزم متابعة السفر من هناك الى بطرسبرج ولكن الرجل اخفق سعياً وذلك ان وردت على بوليس اودسا السري افادات من احد الافراد الخونه ينبئه بحقيقة الأمر فلم يكد غريغوروفتش يبلغ اودسا حتى القى البوليس السري القبض عليه مع ما معه من الأوراق السرية التي فيها تفاصيل مكيدة جديدة و بسبب ذلك القى القبض على ثلاثة وعشرين شخصاً في بطرسبرج من الرجال والسيدات فحوكموا سرًّا وحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة في سيبيريا وتبين من التفاصيل التي وردتنا بعد ذلك ومن مطالعة جريدة النوفوستي الروسية الشهيرة ان الذي افشى سر ايفان غريغوروفتش الى البوليس هو البرنسس كاريوف وعليه عقدت لجنة الجمعية العاملة وعددهم خمس جلسة وحكموا على البرنسيس بالاعدام وطريقة انتخاب العضو الذي يناط به هذه المهمة تكون بالقرعة فوقعت القرعة هذه النوبة عليّ

وكان الأعضاء يتكلمون عن القتل والاعدام بسكون وتبسم كأنهما أمرًا عاديًّا ولا بد لي من الاقرار اني شعرت أولاً بشيء من التردد والتوقف فلحظ ذلك الأعضاء وأفادوني ان وشاية هذه المرأة قد سببت نفي نيف وعشرين شخصاً من اخواننا الابرياء وانه لابُد من اعدامها ولما كنتُ قد أقسمت عند دخولي في زمرة النهلست أن أقوم بسائر ما تكلفني به الجمعية من الأعمال والا كان جزائي الإعدام رأيت نفسي مضطرًا الى القيام بأوامرهم

و بعد تقصي أخبار البرنسيس علمت انها قد حضرت منذ عهد قريب الى لندرا حيث استأجرت منزلاً جميلاً في احد احيائها فراقبتها ذات ليلة حتى اذا ما دخلت لحضور الاوبرا دخلت وراءها وجلست بجانبها وكان ذلك اول مرة شاهدتها عن قرب فاذا هي سيدة بالغة نحوًا من خمس وعشرين سنة من العمر ردينية القوام بارعة الجمال لها عينان سوداويان تنفثان السحر الحلال وشعر حالك كالليل ذات جبين وضاح. ووجنتين هما الورد في غضاضته وذراعاها واعلى صدرها

عار يشف عن بياض كالعاج وفي عنقها عقد متألق من الالماس وهي لابسة رداء اسود وعلى ملامحها شيء من الانكسار والاسى و بعد التأمل فيها وجدتها اجمل امرأة وقعت عيني عليها في حياتي — هذه هي الاميرة التي قضى عليّ أن اذيقها كأس الحمام بيدي !

فلبثت انظر اليها وانا في حال اشبه بالذهول

و بعد قليل وقعت عينها عليّ فلما شاهدتني محدقاً بها علت خدودها حمرة الخجل وأخذت تطالع رقعة بيان الرواية التي كانت موضوع التشخيص تلك الليلة ولما انتهى الفصل الأول منها وقفت للخروج الى القاعة الفسيحة للتدخين فمررت بجانبها واعتذرت اليها عن مروري باللغة الروسية فردت إليّ اعتذاري بأحسن منه بذات اللغة وهي تتبسم تبسم اللطف

وقد علمت من التنقيب السابق ان الاميرة هي البرنسس كاريوف وان حياتها بعد الزواج أصبحت حملاً ثقيلاً عليها لما حصل من الشقاق بينها و بين زوجها فلم يمر على زواجها سنة واحدة حتى افترقا فبقي زوجها في روسيا اما البرنسيس فكانت تصرف وقتها بين بطرسبرج و باريس ولندرا وقد تبين بعد وصولها الى لندرا انها حضرت اليها في مهمة سياسية للحكومة الروسية ولم يمر زمن حتى تعرفت بكثير من كبراء القوم ونخبة افرادهم واصبح لها مقام عزيز في الهيئة الاجتماعية فكانت موضوعاً لاخبار الجرائد وحديث القوم فراقبتها عدة ايام حتى اتت هذه الليلة الاوبرا فتبعتها على امل ان اتعرف بها ولما انتهى التشخيص التفت نحوها وقلت بكل تأدب بالروسية « اراك يا مولاتي وحدكِ هنا فهل تسمحين لي ان احضر لكِ عجلتك ؟ »

فأجابتني بالإنكليزية « أشكرك أيها المولى وسترى خادمي بانتظاري خارجاً وهو لابسٌ ثوباً أحمر »

« ماهو الاسم الذي أذكره له »

« البرنسس كاريوف »

ثم التفتت اليّ وقالت « أرانا من وطن واحد اليس الأمر كذلك يامولاي »

فأجبتها « بلى ياسيدتي وان الروسي يسر على الدوام بمشاهدة مواطنيه في الغربة » ثم أخرجت من جيبي رقعة الزيارة باسم جورجو قتش ملاكوف وسلمتها اياها وبعد بضع دقائق عدت وأحضرتها الى العجلة فشكرتني وجرت كالسهم المنطلق لا تلوي على شيء

وفي أثناء الاسبوع التالي اجتمعت بها عدة مرار فرأيت منها ظرفاً ولطفاً عظيمين ودعتني للذهاب اليها فقبلت ذلك بالامتنان ولم يمض علينا سوى قليل من الزمن حتى أصبحنا صديقين حميمين ولا بد لي من الاقرار اني هممت بحبها وغرامها فكانت تتجلى لي كأنها شعلة من نور وصوتها أنغام شجية تهتز لوقعها أوتار القلوب وعواطف النفوس غير أني لما علمت شرف أسرتها وسامي مقامها اعتراني اليأس والقنوط وعلمت أن هذا النعيم سيفضي بي الي أوخم العواقب وبينما كنت جالساً معها ذات يوم وحديثها يقطر شهداً وضعت يدي الى صدري فشعرت بالآلة التي كنت قد خبأتها هناك لكي أغتال هذا الملاك فاقشعر جسدي واستولى عليَّ الجزع والارتعاش كما انتفض العصفور بلله القطر.

وكانت عيناها إذ ذاك تنظران من النافذة التي أمامنا الى جنائن الاشجار الجميلة والزهور البديعة وجمال الطبيعة فالتفتت اليّ لفتة الغزال الشارد وقالت «مالك يا مولاي فاني أراك صامتاً » فلم أجبها ولكن انتصبت على قدميَّ وأخذت يدها وقبلتها وأنا لا أدري ما أنا فاعل ثم تدفقت كلمات الغرام من فمي تدفق السيل فارتجفت أعضاؤها وأسرع تنفسها ولكنها لم تجذب يدها مني وحاولت اخفاء ما يخالج صدرها من عوامل الحب فلم تستطع ثم التفتت اليّ وقالت « لم أكن أظن يا فلاديمير إنك تحبني أما أنا فقد أحببتك حبًّا شديداً أحاول اخفاءه فيضطرم في صدري ولقد كانت حياتي في ما سلف سلسلة أحزان وأسى وانك هو الرجل الوحيد الذي أحببته مدى عمري »

فدهشت لمقالها وقلت لها « أحقيق اني أخطر أحياناً في خاطرك يا مولاتي الاميرة ؟ »

فتبسمت وقالت « لا تدعني مولاتك الاميرة بل ايرين وسيأتي يوم تعلم به

قدر الاميرة التى هي الآن أمامك واخلاصها لك لأنك لا تعرف عني الآن شيئاً سوى ما تمليه عليك عواطف الحب والغرام ولكن سوف ترى قدر حبي لك وشدة تعلقي بك وشرف خصالي وصفاتي وعسى ألا يمر زمن طويل حتى أتمكن من الحصول على حكم الطلاق من الأمير كاريوف ثم نتزوج ونعيش معاً على الرغد والسعادة أما أنت فلا أسألك شيئاً عن ماضيك أو تفصيل أحوالك واعلم اني أكون على الدوام مخلصة لك ولودك » ثم أسندت رأسها بين كفيها ولجت في البكاء

ولما عادت الى نفسها قالت « لا تقدر الآن على الشعور بما أشعر به من التعاسة والشقاء لأنك لا تعلم مرارة حياتي »

« لا يا ايرين فقصي عليّ شيئاً من أخبارك »

فجلست على كرسي مريح وأومأت لي أن أجلس على كرسي آخر بجانبها فقلت « كلاَّ فانه لا يحلو لي الجلوس الاّ عند موطئ قدميك فلا أجلس الاّ هنا »

فانطرحت عند قدميها ثم شرعت تقص عليَّ حكايتها فقالت لي « ان حياتي قد ذهبت ضياعاً وكانت أمي فرنساوية المحتد وأبي في عداد أعضاء الشورى في روسيا فصرفت أوائل حياتي في موسكو ثم بعد ذلك في البلاط القيصري في بطرسبرج ولقد أكرهني والدي على الاقتران بالبرنس وهو كما تعلم وافر الثروة واسع الجاه ولكنه لم يمر على زواجنا سوى بضعة أشهر حتى أخذ يسيء معاملتي حتى كانت تدفعه الحدة أحياناً الى ضربي ضرباً مبرحاً ولا تزال آثار هذا الضرب في جسدي حتى الآن وفوق ذلك فانه عشق ابنة فرنساوية من بنات الرقص والخلاعة فصبرت على جوره ما استطعت الى هذا من سبيل ولما بلغت الروح التراقي وخشيت على حياتي من القتل هجرته وحضرت الى هنا »

فاحتدمت غيظاً وقلت لها « أيمكن أن يبلغ توحشه هذا الحد ؟ »

فتنهدت وأكملت حديثها قائله « ولم يكتف الامير بذلك بل حاول تطليقي منه وعاونه على ذلك نفر من أصدقائه تظاهر أحدهم بودي وغرامي لكي يكون ذلك حجة للأمير عليّ في الطلاق فأرجعته بخفي حنين لأني لم أفعل بعد زواجي شيئاً

قط يكون مأخذاً عليَّ ومع انني أحبك الآن وأودك كثيراً فانه لم يجر بيننا ما يحق للأمير معه الطلاق فعفت الحياة وهجرت الوطن وأخذت أتراوح في الاقامة بين باريز ولندن وأنا وحيدة شريدة لا صديق يمنع الضيم عني ولا أليف أشكو اليه أمري »

وقبل أن تتم حديثها قاطعتها وقلت لها «ان امامك صديق يفديك بدم قلبه »

فألوت عليّ وقبلتني وقالت « صرفت حياتي في ما سلف بين الشقاء والعبرات ولكن أشعر الآن بنعيم وسعادة لا أقدر على وصفهما»

« اني أكاد أطير جذلاً وسروراً مما تقولين وسنعيش معاً على الحظ والنعيم لا يفرق بيننا مفرق ولا يثني حبنا بشر »

« ماذا أو من يقدر على تفريقنا فاننا كلينا في حب وغرام وعندي من النقود ما يفي بسائر حاجتنا »

فعاد في تلك اللحظة الى خاطري ذكر الخنجر الذي خبأته في ثوبي والذي أعددته ليخترق قلبها فذعرت وارتجفت أعضائي ارتجافاً شديداً ولكنها لم تترك لي مجالاً للانتظار فقالت « انى لك وانت لي وبعد قليل نتزوج ونعيش على على الدوام في النعيم الذي نحن عليه الآن »

وكانت الشمس قد غربت وأرخى الليل سجوف الظلام فوقفت وانحنيت عليها أقبلها وبينما أنا كذلك اذا بالخادمة قد دخلت فلما رأتني كذلك ذعرت واعتذرت قائلة « اعذريني يا مولاتي فاني ظننت انك قد انطلقت »

فأجابتها الاميرة « لا يا نينا اني سأبقى الليلة هنا واخبري الخادم أن الموسيو ملاكوف سيبقى هنا للعشاء »

ثم أضاءت الخادمة المصابيح وانطلقت من الغرفة فتطلعت الى وجه الاميرة واذا به يتدفق جمالاً وسروراً فخطر على بالي حينئذ خاطر جهنمي وهو لماذا لا أنجز الآن العمل الذي أتيت لأجله الى هنا وأغمد خنجري في قلبها وهي في ابان السعادة وأوج النعيم فان ذلك لخير من الانتظار وخصوصاً لأني اذا أحنثت بقسمي للنيهيلست واخلفت وعدي لهم كان جزائي الاعدام وكنت أيضاً على يقين أن

الأميرة لا تنجو من مخالبهم فاستللت خنجري وهممت بقتلها فلم تطاوعني يدي على ارتكاب هذه الجريمة الاثيمة فاعدت الآلة الى نصابها وقد علتني صفرة الوجل ثم عدت الى مجلسي على الكرسي الصغير الذي كنت جالساً عليه عند قدمي الأميرة وعدنا الى تتمة أحاديث العشق والغرام

و بعد اسبوعين من الزمن وصلتني رقعة من لجنة الثورة يدعونني بها الى الحضور فلما مثلت بين أيديهم ورأيت ما على ملامحهم من الحزم وثبات الجأش اعتراني ذهول فسألني الرئيس بتروف وقال « وجدناك متردد في قتل الاميرة كاريوف فما سبب ذلك ؟ »

« يلزم — يلزم يا مولاي وقت لذلك »

« قد مضى عليك الآن ثلاثة أشهر ولم تنجز شيئاً وقد علمنا أنك وقعت في أشراكها ولكن إعلم أنها لن تنجو منا ولو كان حولها أسوار من الرجال والسيوف ثم انه لا بد لي من أن اذكرك انك قد أقسمت بين أيدينا قسماً رهيباً يتحتم عليك القيام به فقد أصدرنا على الاميرة حكم الاعدام فلا بد لك من انفاذه ونحن لا نزال نثق بك ولكن اعلم أنك اذا لم تقم به حلّت عليك نقمة رجال الثورة وأنت أدرى ما معنى ذلك فاذهب وكن رجلاً »

فخرجت من حضرة اللجنة هائماً على وجهي في أسواق لندرا وأزقتها وأنا أفكر في مهرب يكون منه نجاة الاميرة فلم أرَ شيئاً من بارق الأمل لان حكم الاعدام صدر من اللجنة العاملة و يعلم سائر الناس أن الجمعية لم تصدر حتى الآن حكماً على رجل تمكن بعده ان ينجو من مخالبها و بعد أن لبثت هائماً عدة ساعات وجدت نفسي نحو الساعة العاشرة مساء بجانب بيت حبيبتي الاميرة وأنا لا أعي شيئاً فدخلته حتى بلغت غرفة الجلوس وهي لا تشعر بي فرأيتها جالسة و بيدها رواية تطالعها وكانت لابسة ثوباً من الحرير البرتقالي والجمال يتألق في جبينها تألق النور فلما رأتني طربت وقالت « أهذا أنت يا ملاكوف لقد انتظرتك النهار طوله حتى أعياني الصبر و برّح بي الانتظار » فدنوت منها وقبلتها ثم جلست لا أفوه بكلمة فتفرست في وجهي ولما شاهدت ما عليه من الاصفرار والأسى وما على

ثوبي من لطخ الأوحال انذهلت وقالت « أعليل أنت - اني أستحلفك بالله ان تصدقني أمرك فان أراك شاحب اللون منقبض الصدر أعرتك علة ؟ فحاولت الابتسام وقلت لها « اني أشعر باعياء يزول عما قليل »

ثم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث وأنا لا ادري ما اسمع أو اقول الى ان شعرت اخيرًا انها لمست يدي ووضعتها على وجهها — تلك اليد التي ستجرعها بعد بضع دقائق كاس الحمام فلم أطق أن تفعل ذلك فجذبت يدي بعنف منها فتعجبت من ذلك وقالت «أظنك عليلاً يا ملاكوف » فأجبتها « اني على غاية ما أتمنى من الصحة ولكن افتراقنا هو علة شقائي » فقالت « أتتكلم عن الافتراق فلا يفرق بيننا إلا الموت » وطوقت عنقي بيديها وهي تقبلني قبلة الحب والإخلاص فشعرت بارتعاش شديد في جسدي ووقفت من موضعي أتمشى في الغرفة من جانب الى جانب و بعد قليل التفت اليها وقلت

« أيتها الأميرة اني نذلٌ جبان فلقد خدعتك »

« ماذا تقول ؟ ألا تحبني يا ملاكوف »

« انك اعزُّ لديَّ من حياتي ولكن أقسمت على قتلك »

« أتقتلني أنا يا ملاكوف — أتقتل الامرأة التي تحبك أكثر من نفسها ؟ إني أرى فيك مسًّا من الجنون »

« بلى ان فيَّ مسًّا من الجنون لأنني أحببت الامرأة التي ساجرعها كاس الحمام من يدي ولا بُد لي من قتلك فاني نهيلستي »

ولما سمعت هذه اللفظة اصفر وجهها وارتجفت أعضاؤها وتراجعت عني الى الوراء وهي تكاد يغمي عليها ثم أخذت تكرر اللفظة « نهلستي ! نهلستي ! »

« بلى اني نهيلستي ولقد وشيت بنا الى البوليس في روسيا وشاية أوردت عشرين نفرًا من اخواننا منفاهم في سيبيريا ولقد حكمت عليك اللجنة بالموت وستنالينه هذه الدقيقة » وما أتيت على تتمة ذلك حتى استللت خنجري وقبضت على معصمها

فاهتزت الاميرة اهتزازًا شديدًا و بدا بريق الانذهال في عينيها وصاحت

« ان هذا مين وكذب من المنافقين الذين يرمون بي الى التهلكة — أما تعنى بذلك تلك المقالة التى نشرتها جريدة النوفوستى فالله يعلم انى بريئة من كل ذلك ولكنها دسيسة من زوجي فانه لما لم يتمكن من طلاقي كما أخبرتك قبلا عمد الى الدسائس السياسية فرشى بعضا من القوم حتى أشاعوا عنى هذه الأكاذيب وفي عدادهم الكاتب المذكور والغرض من كل ذلك ان تحل عليَّ نقمة النيهيلست حيث يكون جزائي الموت »

« أبريئة اذًا أنت ؟ »

« إني أقسم لك بكل ما هو مقدس أني بريئة من هذه التهمة ولما جرت محاكمة الذين تشير اليهم من أعضاء النهلست كنت وقتئذٍ مع الارشيدوقة بول في أودسا وأنا على جهل تام مما جرى حتى بلغني أمر المقالة في الجريدة المشار اليها فبعثت اليها اكذب الخبر تكذيباً قاطعاً فلم ينشر وماذلك الاّ لدسائس الامير كاريوف »

« أصدق كل كلمة مما تقولين ولكن أنَّى لي أن أنقذك من مخالب المنية فان الحكم قد صدر عليك بالاعدام وأنا مرتبط بقسم لانفاذ هذا الحكم »

« اني بريئة ولكن اذا كان لا بدّ لك من اعدامي فأرجوك أن تمهلني شيئاً من الزمن أستعد به للموت »

« كم تطلبين ؟ »

« نحوًا من ثلاثة أيام »

« حسن — إني أمنحك هذه الامنية » ثم ودعتها منصرفاً

وفي مساء اليوم الثالث سددت خطواتي نحو بيت الأميرة فالتقيت بالخادم وقلت له

« الأميرة في البيت ؟ »

فذرفت دموعه وقال « ويلاه يا مولاي فانها قد ماتت ! »

فأجبته منذهلاً « أماتت الأميرة ومتى كان ذلك ؟ »

فتنهد وقال « لقد اغتالتها يا سيدي يد الاشقياء فانها قتلت قتلاً ولم

أكتشف على ذلك الاّ منذ نحو ساعتين فقط فجريت أستحضر الطبيب وهاهو الآن في غرفتها مع البوليس »

فأسرعت الى الغرفة حيث سمعت أصوات القوم فوجدتها كبيرة مظلمة لا ينيرها سوى شمعتين وجثة الأميرة موسدة على سرير بجانب النافذة وملفوفة بغطاء من الكشمير وصدرها ملطخ بالدم فلم أحفل بالقوم بل دخلت ووقفت بجانب الرمة ولما تطلعت فيها هالني ذلك المنظر الرهيب فان وجهها كان مشوّهاً بالجراح ومنظره مخيفاً فكدت أسقط الى الارض من شدة الهلع وتجلدت ولبثت واقفاً ثم رأيت في يد أحدهم آلة قاطعة يحدق بصره فيها بجانب النور ولما تأملت فيها ارتعشت سائر أعصائي فانها كانت خنجري الذي وضعه في يدي رئيس اللجنة لاغتيال الأميرة فوضعت يدى في جيبي فلم أجد سوى غمد الآلة أما الآلة نفسها فلم تكن هناك فعلمت إذ ذاك أنها قتلت بالخنجر الذي كان لي فأخذ البوليس اسمي المنتحل وعنوان موضعي إذ قال انه لا بد لي من تأدية شهادة امام المحكمة و بعد ان انصرف القوم سألت الخادم عن تفصيل الأمر فقال لي ان الاميرة كانت عازمة على التوجه الى باريس صباح الغد وانها أرسلت وصيفتها قبلها الى هناك لتعد لها الغرف اللازمة لنزولها فيها ثم انه نحو الساعة الخامسة سمع قفل الباب فاستنتج ان سيدته قد خرجت من المنزل ثم بعد نحو ساعتين من الزمن دخل الى الغرفة فوجد الأميرة جثة لا حراك بها

وفي مساء اليوم التالي عقدت اللجنة العاملة جلسة خاصة فذهبت الى هناك لأقدم تقريراً بشأن ما حصل قياماً بالواجب عليّ لا لافادة جديدة لأن أعمدة الجرائد كانت ملأى بخبر هذا الاغتيال الذي كان سرًّا من الاسرار

ولما بلغت النادي التفت الى الرئيس بتروف وقلت

« إن الاميرة قد قتلت يا مولاي »

فقال « اذا كان الامر كذلك فاشكر أخانا ارتانوف الذي قام بهذه المهمة »

فتطلعت حولي منذهلاً واذا بالقاتل جالس بجانبي على كرسي و يداه مسندتان عليها فنظر اليّ الرجل وقال « فعلت ذلك اكراماً لك لأني اعلم الصعوبة التي

كانت تحيق بك إذ انه يتعذر على العاشق قتل عشيقته فأحببت مساعدتك في الأمر »

و بعد ذلك دُعيت لتأدية الشهادة مرتين امام المحكمة وبعد اطالة البحث على غير جدوى صدر الحكم بأن الاميرة قتلت بيد جانٍ غير معروف ثم بعثوا نبأ بهذا الصدد الى زوجها الأمير فلم يهتم بشيء من الأمر ولما دفنت الأميرة لم يكن في جنازتها سواي والخادم ايفان خادمها أما البوليس فلبث مواصلاً البحث والتنقيب دون أن يتاح له الحصول على حلّ هذا اللغز المعمَّى

و بعد نحو شهر من الزمن وصلتني يوماً رقعة من الخادم ايفان المشار اليه يطلب بها مني أن أوافيه ليلاً تحت كبري إحدى المحطات في العاصمة فذهبت في الوقت المعين ظاناً ان هنالك أمراً جللاً يحب مفاتحتي بشأنه وكان موضع الاجتماع مظلماً ولا يمر فيه سوى قليل من الناس و بينما كنت واقفاً في الموضع المشار اليه أنتظر الرجل واذا بيد لمستني وصوت سيدة تناديني باسمي فالتفت فرأيت سيدة مرتدية رداء السفر وعلى وجهها برقع كثيف فرفعته قليلاً ولما نظرت اليها كاد يقضى عليَّ من الذهول لأن الامرأة التي كانت واقفة أمامي لم تكن سوى الاميرة كاريوف !

فتقدمت اليها وأنا أكاد يغمى عليَّ من الجذل وقلت لها «أهذه أنت يا ايرين؟»

فقالت « نعم ولا تظنني خيالاً الاّ أنه لا بد لي من التنكر حتى لا يراني أحد فلنذهب من هنا » ثم أسدلت برقعها الكثيف مرة أخرى على وجهها

فانطلقنا نحو أشجار غضة بجانب النهر ولما خلونا تطلعت اليَّ ايرين وقالت « لا تندهل مما جرى فان الأمر على غاية البساطة والسهولة . أتذكر تلك الليلة الأخيرة التي حضرت فيها اليَّ ورأيتني أطالع رواية كانت وصيفتي نينا تلك الليلة عليلاً ولم ادعُ لها طبيباً لأني ظننت أن توعكها لا طائل تحته ولم أدر أن تلك الابنة المسكينة كانت مصابة بعلة قلبية فقضي عليها الساعة الخامسة في اليوم الثالث من حضورك اليَّ فخطر لي إذ ذاك أن أضع تلك الابنة مكاني وخصوصاً لما بيننا من المشابهة في اللون والسن والشعر وأخبرت ايفان الخادم بذلك وقلت له

أن بعض الجناة يودون اغتيالي »

— « هل ذكرت اسمي له ؟ »

— « كلاَّ كلاَّ و بعد أن وضعت ثيابي على جثة نينا نقلناها الى غرفتي ثم لبستُ ثيابها وأخذت أثمن جواهري وسافرت الى باريس تاركة ايفان في البيت ولقد أخبرني أنه بعد ذهابي شاهد رجلاً متوسط القامة قد دخل البيت بعد أن فتحه بمفتاح كان في جيبه ثم أخذ يجول في الغرف حتى بلغ غرفتي فرأى هناك في الظلام جثة نينا التي ظنها إياي ولقد حصل كل ذلك بعد موت نينا بنحو نصف ساعة فقط »

— « ان تشوه الوجه هو الذي حال دون معرفتي حقيقة الشخص »

— « لقد أصبت ومع كل ذلك فانه لم يكن هنالك من جريمة أما أنا فتمكنت من التخلص وقد غيرت اسمي فلا يوجد الآن في العالم الأميرة كاريوف بل مادام ركتسنكي واني لا أزال أحبك ولكن أرى أنه لا بد لنا من الافتراق لأنه اذا عدنا الى اجتماعنا اكتشفت لجنة النهلست حقيقة الأمر وعادوا الى غدرهم بي أو بك وها اني الآن مسافرة الى بروكسل ولا بد لي من العجلة لأن القطار يكون على أهبة السفر بعد ربع ساعة ولما بلغناه هززت يدها وقلت لها « أودعك يا مولاتي » فقالت « لا — قل الى الملتقى » ولما تحرك القطر وضعت أصابعها على شفتيها اللطيفتين كأنها تقبلني عن بعد وقالت «الى الملتقى يا حبيبي فانك كنت سبباً في نجاتي من مخالب المنية » فوقفت صامتاً لا أدري ماذا أفكر أو أقول

الفصل السادس

« ساعة المنيَّة »

ان البوليس السرّي لسفارة روسيا في لندرا عبارة عن جيش من العمال دأبهم

السعي والتنقيب عن مكايد النهلست وأسرارهم والوقوف على كل حركة من حركاتهم وعليه كان من دأبنا اجراء حركات ودسائس بعيدة عن مرادنا وليست من الحقيقة في شيء والغرض الوحيد من ذلك ايهام البوليس السري وابعادهم عن اكتشاف الدسائس الأكيدة الصحيحة فانه لا يوجد ملك في العالم قط له من الجواسيس وزمرة العمال ما لقيصر الروس فانهم في كل عاصمة وفي كل بلاد ولا بد من الاقرار أنهم من أذكى جواسيس العالم وأشدهم مهارة وأرشقهم حركة وأكثرهم سعياً وأجرأهم اقداماً وأعظمهم بطشاً ولكل سفارة من سفارات أوربا نيف وخمسون شخصاً في جهد مستمر ودأب متصل للوصول الى معرفة من يشتبه في أمرهم من الروسيين المشتغلين بالامور السياسية بعد أن ينزحوا من بلادهم ويستوطنوا العواصم الأوربية يصبح هؤلاء دائماً وأبداً تحت أنظار الرقباء من الجواسيس الذين يكونون لهؤلاء الأقوام أتبع لهم من ظلهم ويقدمون بشأنهم التقارير المطولة والبيان الوافي الى الجنرال سكرتسنكي رئيس المصلحة في بطرسبرج ليكون على بينة من أمرهم

وان القحة والجرأة التي يصل اليها هؤلاء الجواسيس في الممالك الأوربية الصغيرة وفي مثل بلغاريا ورومانيا وسويسرا وايطاليا تبلغ حداً فاحشاً من التطاول ومجاوزة الحقوق الدولية حتى انهم يستبدون أحياناً في أعمالهم كما لو كانوا في مقاطعات روسية وكثيرون من الخبيرين في البلقان يعتقدون أن البلغاريين اللذين حاولا اغتيال مونتوف رئيس بوليس روستشوك عند ما توجه الى بخارست انما فعلا ذلك بايعاز أحد كتمة أسرار السفارة الروسية في رومانيا ولم تقف قحة هؤلاء الأقوام عند هذا الحد بل حملوا البعض بالرشوة والدنانير الوضاحة على وضع آلات لتزييف النقود خلسة في منزل أحد مشاهير كتبة الروس وهو الموسيو كاس دوبروجانو كما اتضح ذلك أثناء المحاكمة والانكى من كل ذلك أنهم وضعوا خلسة بمثل هذه الدسائس قنابل ديناميت وغيرها من المواد الانفجارية في بيوت بعض الروسيين النازحين الى العواصم الأوربية ثم وشوا بهم الى الحكام حتى اذا وُجدت هذه المواد كان هؤلاء الأقوام المتهمون عرضة للقصاص

والطرد فيذهب بذلك نفوذهم السياسي وتبطل دسائسهم من تلك العاصمة ولقد تبين حديثًا أثناء محاكمة جرت بهذا الصدد في باريس حيث حكم فيها أولاً على ستة من الروس بالسجن سنوات عديدة ان القنابل الديناميتية وضعت في بيوت أربعة من المتهمين على الأقل بدسائس جواسيس الحكومة الروسية ولقد بلغ تفننهم بالدهاء حدًّا حارت عنده العقول وأوقع النهلست حيناً من الزمن في أشد الحيرة والانذهال وذلك أن بعضاً من أفراد هؤلاء الجواسيس اتصل الى قتل بعض من اخوانه الجواسيس تزلفاً للنهلست وتمهيداً لانخراطه في سلكهم حتى يكون على بينة تامة من كل حركة ودسيسة ومكيدة تصدر منهم

ولقد أحدثت الحكومة الروسية مؤخراً تحسينات مهمة واضافات جديدة في مصلحة جواسيسها بالممالك الأوربية زادتها اتقاناً وارهاباً فقد جعلت باريس العاصمة العظيمة مركزاً لقواتها تنبث منه وتتشعب الى غيرها من المدن التي يؤمها طلبة العلم في روسيا وذلك نظير مونبليه وزوريخ وبرن ونيس ومنتون وما شاكلها أما في لوندرا فان الجاسوسية فيها مصلحة مستقلة عن غيرها ولا غرو فان لندرا بمثابة مملكة برمتها من ممالك العالم وخصوصاً لأنها العاصمة العظمى التي تضم عدداً غفيراً من مجرمي الروس السياسيين ونوابغ كتبتهم وعظماء أمتهم فيلقى فيها هؤلاء الجواسيس للنهلست شراكاً غريبه الأشكال متعددة الأنواع لايقاعهم في حبائلهم من ذلك أنهم أنشأوا حديثاً نادياً علمياً لطلبة العلم وأصحاب الأقلام الروسيين يؤمه الجواسيس متى أرادوا دون أن يعلم أحدٌ أنهم هم الذين أنشأوا ذلك النادي فمتى تقاطرت اليه الشبان سهل على الجواسيس معرفتهم ووضع الشراك التي يلزم أن تلقى لهم ولكن النهلست نفسهم يعلمون كل ذلك وسائر ماينصب لهم من الشباك فيتجنبونها تجنب الافعى

وحدث في أواخر أيام اسكندر الثالث ان زاد استبداد الحكام في الرعية وكثر الجور والمظالم وبلغ صراخ المظلومين عنان السماء وأرسل كثيرون من الأقوام الى منافى سيبيريا وخصوصاً من أعضاء جمعيتنا فعقدت اللجنة العاملة جلسة في لندرا وقررت وجوب ارهاب القيصر وذلك بنسف قصر الشتاء في بطرسبرج

حيث هنالك موظفان كبيران من أعضاء جمعيتنا يعاوناننا سرًّا على انجاز العمل ولما أقرت اللجنة العاملة على ذلك أخذت في أعداد الوسائل اللازمة لهذا الارهاب وأخطرت بذلك سائر فروعها في المراكز الاوربيه الروسية

أما آلة الهلاك الديناميتية التي أقرت اللجنة على صنعها فهي على شكل ساعة كبيرة لاشيء في ظاهرها يدل على دخيلة أو مكيدة في الامر ونيط صنعها بنقولا ترسنسكى أحد مهرة الصناع وهوهو نفسه الذي اصطنع القنبلة التي انفجرت في القطار الامبراطوري على مقربة من غوردنو وغيرها من القنابل التى أوقعت الرهبة في قلوب كثيرين من حكام الروس وأمرائهم وواضحٌ ان أهم ما نرمى اليه في مثل هذه الأحوال بقاء الأمر سرًّا طيّ الخفاء والكتمان فاتخذنا أشد وسائل الحرص والحذر ولكن مع كل ذلك تبدّى لنا ذات يوم ما يؤخذ منه انّ الجواسيس بدت لهم لوائح التحذر وانهم في نهضة جديدة وجهد متصل لاكتشاف لغزٍ من الألغاز فاتضح لنا من كل ذلك أنهم أحسوا بالدسيسة التي شرعنا بها

ولما تبين ذلك التأمت اللجنة العاملة على عجل ونظرت في الطريقة المثلى التي يحسن بنا اتباعها في مثل هذا الموقف حتى لا ينكشف أمرنا أو نفشل في عملنا وكنتُ قد انقطعت منذ أشهر عديدة عن التردد الى نادي الثورة حتى لا يشتبه في أمري أحد من الناس واستأجرت بيتاً من أحسن بيوت العاصمة وفي أفضل احيائها فلم يكن يخطر على بال بشر أني من طغمة النهيليست أو لي بأحد من أصحابها شيء من العلاقة فلهذه الاسباب وقع أختيار اللجنة عليّ وعلى صديق لي يسمى أورلوف لكي نكون رقيبين على أولئك الجواسيس الى أن يتمكن الرئيس بتروف واللجنة العاملة من انجاز الآلة وبعثها الى روسيا

فقمت على هذا العمل بهمة لا تعرف الكلال وعزم لا يتطرق اليه الملل فكنت أتنكر متزيياً بأزياء مختلفة الاشكال متعددة الانواع وأتتبع الجواسيس من حي الى حي ومن حانة الى أخرى . أتبعهم الى أحقر مواضع العاصمة وأسفل أفراد الاقوام واستعنت على هذا الامر بنفر من اخواننا كنت أبعثهم الى مواضع متعددة من انحاء العاصمة لكي يكونوا باعثاً على توجيه انتباه الجواسيس اليهم

فيتتبعون خطواتهم الى أن ظفرت بغرضي المطلوب وهو صرف جاسوسيتهم عن الموضع الاصلي الذي تصنع فيه تلك الآلة البديعة الصنع ومما سهل علينا عملنا من هذا القبيل ان اللجنة نقلت نادي الثورة من موضعه المشهور الى موضع سري من انحاء المدينة فكانت في مأمن من الابصار وفي أثناء هذه الفترة ثابر نقولا ترسنسكي على اكمال معدات آلته بكل حزم ونشاط

وحدث ذات ليلة أني كنت في قهوة من قهاوي المدينة وفي يدي جريدة أطالعها واذا برجل أمامي يخاطب خادم القهوة باللغة الروسية فتطلعت فيه واذا منظره يطابق صورة رجل سلمتني اياه اللجنة العاملة وأفادتني انه الرجل الشهير المسمى غوبيو وهو أمهر جواسيس الفرنسيس استخدمته الحكومة الروسية رئيساً لطغمة جواسيسها في لندرا

وكان اذ ذاك قد أشعل عوداً من الكبريت لاشعال لفافة من التبغ فرجوته أن يسمح لي باشعال لفافتي منها فكان ذلك سبيلاً لي الى محادثته والتقرب منه وبعد أن تجاذبنا الحديث لحظة من الزمن أيقنت أن الرجل لا يشتبه في شيء من أمري ثم أخذنا بعد ذلك نعاقر الخمرة ونقدح من أقداحها مسرة ووداداً نحو ساعة من الزمن سرنا بعدها سوية في أحد شوارع المدينة ولما افترقنا تبادلنا رقاع الزيارة فأخذت رقعته وعليها اسم جول غوبيو وسلمته رقعتي وعليها اسم المستر بول ماكنزي عضو في النادي الشهير في لندرا المعروف بنادي الاحرار ثم أفادني ان مهنته تاجر قفافيز أما أنا فأخبرته اني بلجيكي المحتد من عائلة غنية حضرت الى لندرا طلباً للتنزه

وعند افتراقنا ركبت عجلة وودعته ولكن لم أمكث فيها سوى دقيقة من الزمن حتى نزلت منها وعدت من حيث أتيت أتتبع خطوات الرجل الى أن اهتديت الى منزله ومن تلك الساعة أخذت أرقبه للوقوف على طرق جاسوسيته فلم يمض زمن طويل حتى علمت ما كان عليه من الدهاء والاقدام حتى أنه لم يكن يفتر لحظة عن رقب حركات جمعيتنا ليلاً ونهاراً وليس ذلك فقط بل كان يستعين على قضاء ما آربه ليس بجواسيسه الخصوصيين فقط بل بجواسيس الحكومة.

الانكليزية نفسها واتفق لي بعد ذلك الاجتماع بغو يبو مرارًا عديدة فكنا صديقين حميمين لا تشوب صداقتنا شائبة

ثم حدث لي أن ذهبت في أصيل نهار الى بيت أحد الأصدقاء حيث نقل نادي الثورة موقتًا فلقيت هناك الرئيس بتروف فقصّ عليّ حديثًا وقع عليّ وقع الصواعق وهو أن سائر أتعابنا قد ذهبت سدًى وأن الجواسيس والبوليس السري تمكنوا من معرفة مسكن نقولا ترسنسكي حيث يشتغل في صنع الساعة وانهم قد أقاموا حوله سورًا من الرقباء فرأت اللجنة أنه يترتب علينا دون ابطاء نقل الآلة التي كانت قد كملت معداتها من المنزل قبل دخول البوليس الانكليزي السري اليه وتفتيشه وقر قرارها على اختياري أن أقوم بهذه المهمة الخطرة وتطوع صديقي اورلوف بمعاونتي على العمل

فانطلقت الى منزلي كالسهم اذا مرق ووضعت على رأسي شعرًا اصطناعيًّا وغير ذلك من وسائل التنكر حتى أصبحت نظير رجل كهل من العمال البسيطين فنزلت وبيدي صندوق ووضعت عليّ مئزرًا كمئزر العمال وكان قد جن الليل وأرخى الظلام استاره فرأيت امام منزلي عربة مكتظة بالقوم فدخلتها كواحد منهم ولما نزلت منها بجانب الموضع الذي سددت نحوه خطواتي التقيت برجل رث الثياب يتمشى جيئة وذهابًا وهو يدخن وما تفرست فيه قليلا وسط ذلك الزقاق الذي كانت أنواره خفيفة حتى أدركت من ملامح وجهه انه غو يبو فتأمّل فيّ بعين برّاقة ولكنه لم يبد منه ما يدل على أنه عرفني فبقيت سائرًا الى أن بلغت منزل الساعاتي ترسنسكي فالتفت ورائي قبل دخوله فوجدت ظهر الجاسوس نحوي ووجهه الى الجهة الأخرى فانطلقت داخلا البيت في مثل غمض الجفن بعد ان فتحته بمفتاح كان في جيبي وكان المنزل من طبقتين والظلام حالكًا فخشيت ان أشعل عودًا من الكبريت لئلا يكون وجود الضوء في الموضع باعثًا الى اشتباه الجاسوس غو يبو الذي كان يراقبه عن بعد فتلمست طريقي في الظلام الدامس الى أن بلغت معمل ترسنسكي وهو آخر غرفة في الطابق العلوي كما كان قد أفادني عنه قبلا وبعد أن فتشت بضع دقائق وجدت الصندوق الذي يتضمن الساعة

على مقربة من النافذة وكان صغير الحجم مربع الشكل له مسما كان على الجانبين بحيث أنه لا يمكن لأحد أن يشتبه بأمره على الاطلاق

فانحنيت لأمسكه بيدي بكل لطف وهدو لأنه كان فيه من الديناميت ما لو انفجر لهدَّم سائر ذلك الشارع برمته وفيما أنا على هذه الحال شعرت بيد وقعت على كتفي ورجل يقول من ورائي « لقد قبضت عليك أيها الجاني » فعلمت من الصوت أن الرجل هو غويبو نفسه قد دخل ورائي الى المنزل واقتفى أثري الى المعمل وكانت يداه ممسكتين ذراعيَّ كقبض من الحديد ولكنه لم يكن سوى بضع ثوان من العراك حتى تخلصت يمناي وفيها مسدسي فصحت فيه « دعني يا رجل والاَّ أطلقت مسدسي على هذا الصندوق الذي اذا تفرقع حملك الى الجحيم » قال « اذا فعلت ذلك كنت رفيقي الى ذلك الموضع وأني الآن ألقي القبض عليك لأنك رجل جان يشتغل في اصطناع المفرقعات » فرأيت اني اذا أطلقت عليه المسدس تراكضت الناس وافتضح أمري فالتفت الى ماحولي فرأيت على الأرض قطعة من الحديد فالتقطتها وقبل أن يتمكن من التفوه بكلمة بادرته بضربة شديدة على رأسه فلم ينبس ببنت شفة بل ترنح ترنح السكران وسقط الى الأرض لا يعي على شيء فرميت من يدي الحديد وأعدت المسدس الى جيبي وحملت الصندوق أجري به من البيت كالبرق اذا أومض حتى بلغت الزقاق ولما خرجت منه التقيت برجل يتمشى بجانب البيت فلما دنوت منه عرفته فاذا هو رفيقي أورلف فعجلنا المسير في طريق يختلف عن الطريق الذي أتيت به فشاهدت هناك زمرة من الجواسيس والبوليس السري ولكنهم لم يشتبهوا في شيء من أمري ثم التقيت بعجلة استأجرتها ووضعت الصندوق بجانبي وأمرت السائق أن يعجل بالمسير حتى بلغت منزلي الخاص

وقد كان من حسن الحظ ان عجلتُ في المسير لأن أورلوف بقي يرقب ما يكون من الأمر فأفاذني بعد ذلك اني لم أكد أخرج من البيت حتى دخلته الجواسيس والبوليس السري ولكنهم لم يتمكنوا من العثور على شيء خلا بعض أدوات صناعية ورئيس الجواسيس الذي كان ملقى على الأرض في حال الاغماء

أما غويبو فانه لم يمر عليه سوى بضعة أيام حتى شفي مما أصابه فالتقيت به بعد نحو اسبوع في بعض أنحاء المدينة وتقدمت اليه مسلماً عليه كالعادة فقابلني بالأنس والبشاشة فدعوته الى منزلي لمناولة شيء من المشروب فلم يمتنع عن ذلك ووجدت أنه لم يكتشف من أمري شيئاً ولما جلسنا نتعاطى المدام حددت فيه نظري فوجدته على معتاد حاله من الصداقة والمودة وكان على مقربة منا الصندوق الذي يتضمن الساعة الديناميتية تحت ستار من الكشمير ثم أخذنا في معاقرة الهوسكي وهو لا يدري انني قد وضعت مخدراً في الزجاجة التي أمامه فلم يكن سوى قليل من الزمن حتى شعر بدوار فوضع يده على رأسه منذهلاً وقال « لا أدري ماذا أصابني فاني أشعر بصداع ودوار في الدماغ » ولم يتم كلامه حتى سقط من على كرسيه الى الوراء ولما أخذ منه المخدر كل مأخذه أخرجت الأوراق التي في جيبه فوجدت كتباً متعددة ومحفظة مدونة فيها أسماء النازحين الروسيين في لندرا وداخل غلاف المحفظة كتاب من رجل عليه عنوان موضعه وفي ذيله امضاؤه فاذا هو من باتروفسكي أحد أعضاء جمعيتنا في باريز فعلمت من مطالعة الكتاب انه هو الرجل الذي أفشى سرنا بخصوص صنع الساعة الديناميتية وانه ينقد راتباً سنوياً من حكومة روسيا وليس سوى أحد جواسيسها منتظماً في سلك أعضائنا فنسخت الرقيم المشار اليه على ورقة خاصة و بعد أن نقلت سائر ما يهمني نقله أعدت كل شيء الى موضعه وأخذت أرشق وجه ضيفي بالماء البارد وأنشقه بعض المنبهات حتى عاد الى رشده وهو يقول ان ما جرى له انما كان من مفاعيل الهوسكي وحرارة الغرفة ففتحت النوافذ الى أن استفاق جيداً وكان أول أمر فعله ان وضع يده في جيبه حيث كانت أوراقه ولما رأى انه لم يفقد منها شيء اطمأن و بعد أن جلس برهة ودعني وركب عجلته وانصرف ثم ذهبت في مساء ذلك اليوم الى نادي الثورة وقدمت تقريراً بشأن خيانة باتروفسكي فصدر عليه الحكم بالاعدام

وفي هذه الاثناء وردت أنباء الرفاق من بطرسبرج تفيد أن سائر معدات المكيدة أصبحت على تمام الاهبة وان أحد الأعضاء قادم من بطرسبرج الى

بروكسل عاصمة البلجيك لاستلام آلة الهلاك من اللجنة العاملة في لندرا ولقد قام في وجهنا شيء كثير من الصعوبات لأن الجواسيس والبوليس السري كانت على الدوام مرابطة في الثغور البحرية وواقفة بالمرصاد لنا في سائر محطات السكك الحديدية في أنحاء البلدان المختلفة يتفرسون بكل قادم ويرقبون كل غريب وفضلاً عن كل ذلك فان نقل الآلة نفسها محفوف بكثير من المخاطر لسهولة تفرقعها ولانه لا بد في سائر الجمارك من فحص ما يمر فيها وتفتيشه وعائدة كل ذلك علينا وبال ولكن رصفاء نافي بطرسبرج عرفوا مقياس الصندوق الذي يتضمن الآلة واتخذوا تحوطات شديدة لوضعه ضمن صندوق آخر وتهريبه في الجمارك التي يمر بها وخصوصاً ما كان منها في ألمانيا وروسيا وبعد مناقشات وبحث مستطيل أناطت اللجنة بي تسليم الصندوق لمن يحضر من روسيا لاستلامه

ولما كان سفري بالطرق العادية سواء في السكة الحديدية او البواخر محفوفاً بالمصاعب والمخاطر لكثرة العيون والارصاد صممت على اتخاذ طرق غير مطروقة فتوجهت الى قرية صغيرة على الشواطىء الإنكليزية لا تدنو منها بواخر النقل العادية ونزلت في نزل حقير شاعراً اني هنالك في أمن من كل خطر مفاجىء وبينما كنت ذات يوم جالساً في قاعة النزل واذا بأحد البحارة قد دخل وجلس بجانبي يعاقر الخمرة ويغازل خادمة المنزل فعرفت منه انه صاحب مركب في تلك الناحية فسألته هل يتاح لي تهريب بعض أشياء دون دخولها في الكمارك فقال لي انه على أتم الصداقة والولاء مع سائر خفرا السواحل وان ذلك لمن أسهل الامور عليه فطلبت منه أن يفيدني اذا كان يمكنه ايصالي في صباح الغد الى الشواطىء البلجيكية وكم يطلب أجرة على عمله فقال ان ايصالي لمن الأمور السهلة والاجرة عشرون جنيهاً فحاولت انقاص القيمة ولكنه أفادني انه يوجد معه ثلاثة من الرفاق وان مهمتهم لا تخلو من خطر عليهم فاتفقنا أخيراً على ذلك وأفدته أن معي صندوقاً يتضمن حُلياً وجواهر ثمينة أود تهريبها فتبسم وقال « أليست حُلى مسروقة ؟ ولكن مالي ولهذا فانت تدفع لي أجرتي ولا يهمني غير ذلك » فطلبت منه أن يكون على أهبة السفر في المساء

وعند حلول الموعد المضروب أخرجت الصندوق الذي كان موضوعاً مع أثوابي دون أن يشعر بي أحد ووافيت رجالي الى المركب فوجدتهم نفراً من القوم تلوح عليهم لوائح الشراسة وغلظ الأخلاق ثم نشروا القلع وجرى بنا المركب نحو الشواطيء البلجيكية فهاج علينا البحر أثناء السفر ولبثت أمواجه المتلاطمة تزبد وتهيج حتى منتصف الليل وكان الرجال مشتغلين بتسيير المركب وسط الزوابع والعواصف والامواج المتعالية أما أنا فكنت وبجانبي صندوقي في غرفة صغيرة قذرة لا شيء فيها سوى ضوء ضئيل من مصباح زيتي كنت أطالع على نوره عدداً من جريدة والظاهر أن حركة المركب جعلتني أميل للنعاس فأغمضت جفنيَّ ولا أدري كم بقيت كذلك من الزمن ولكن عند ما استفقت من النوم سمعت حولي همساً ووجدت ان المصباح الذي كان بجانبي قد انطفأ وليس حولي سوى ظلام دامس وليل مدلهم

ولما أصغيت قليلاً سمعت النوتية يتكلمون وعلمت أن الغرض من كل ذلك اقتسام الجواهر والحلى التي كانت في الصندوق الذي بجانبي وسمعت أحدهم يقول للآخر «هو ذا الرجل نائم فلنأخذ الصندوق واذا تحرك رميناه به الى جوف البحر كما فعلنا بذلك الرجل من قبله» فعلمت إذ ذاك اني بين زمرة لصوص من النوتية ولبثت ساكتاً لا أحرك عضواً من جسدي الى أن شعرت بيد انسلت الى ما تحت رجلي وجذبت الصندوق الى الخارج فرأيت إذ ذاك أنه لا بد من الاستيقاظ والاّ ذهبنا جميعاً شذرات في الهواء فوقفت وقلت لهم

«ماذا تريدون من هذا الصندوق؟»

فأجابني الرئيس «مكانك فان غرضنا الوصول الى الالماس والزبرجد والذهب التي فيه فاذا تحركت رميناك غذاء للأسماك»

فأشهرت مسدسي وقلت لهم «أقسم بالله العلي العظيم أن من يأخذ هذا الصندوق يقع موضعه ميتاً» فشعرت إذ ذاك أن يداً لمستني ثم أشعل أحدهم نوراً فوجدت أن النوتية الأربعة هم في نفس الغرفة التي أنا فيها ولما شاهد الربان مسدسي لاحت عليهم كلهم لوائح الحيرة والذهول وقال لي

« ان عشرين جنيهاً لا تكفي فيجب أن نأخذ نصيبنا من هذا الصندوق »

ثم انحنى أحدهم وهمَّ بحمله فقلت له أعده الى مكانه والاّ أطلقت عليك المسدس فلم ينتبه الى كلامي فصوبت اليه إذ ذاك المسدس وأطلقته عليه فمرت الرصاصة بجانب أذنه ووقعت على مرآة في الجدار فكسرتها فوضع الصندوق على الأرض واستل سكينه وهم بضربي فمسكه رفيقه وقال له « مهلاً ولا تعجل في قتله بل نمهله لحظة أخرى حتى اذا سلم الحلى عفونا عنه وأنزلناه على شواطئ بلجيكا » فنظرت إذ ذاك الى الرجل وقلت له « لا بد لي الآن من افادتكم حقيقة الأمر فليس في هذا الصندوق شيء من الحلى على الاطلاق بل ان المادة التي فيه هي ديناميت اذا انفجر ذركم رماداً في نواحي الفضاء »

ولما سمعوا كلمة الديناميت علت وجوههم صفرة الوجل وقالوا بصوت واحد « أهذا ديناميت ؟ »

فأجبتهم بصوت جهوري والغضب قد تبدّى في عينيّ « بلى بلى واسمعوا ما أقول لكم فلست بسارق كما تتوهمون ولست بلص أو سالب ولكن لي مهمة يترتب عليّ قضاءها ووصولي الى ساحل بلجيكا قبل شروق الشمس فان تأخرتم عن ذلك ذهب تعبكم سدى ولم تبق فائدة من ذهابي الى الموضع المشار اليه واني رجلٌ سئمت الحياة ومللت البقاء فوالله اذا رأيت مطالاً أو لؤماً ونفاقاً وخداعاً كما بدا الآن منكم لادينّ زُنبرك هذه الساعة وانسفكم أعضاء منثورة في فضاء البحر مأكلا للاسماك وطيور الهواء » وكانت لوائح الشراسة على وجهي وشرر الغضب يقدح من عينيّ ثم دنوت من الصندوق فأخرجته وأريتهم ما فيه فأسقط في يدهم وظهرت عليه لوائح الكآبة والخضوع فعادوا الى موضعهم دون أن ينبسوا بكلمة

ولما علم النوتية بوجود الديناميت أخذوا يعجلون بالمسير تخلصاً من هذه الحالة الخطرة التي أصبحوا ومركبهم عليها ولم يبزغ الصباح الا وقد وجدت نفسي على الساحل بجانب بلاكنبرج فأنزلوني في قارب الى البر ومن هناك حيث توجهت الى البلدة المشار اليها حيث وجدت عجلة سائرة نحو عاصمة البلجيك فنزلت فيها حتى بلغت بروكسل فنزلت منها في نزل أوربا

وبينما كنت جالساً الظهر على مائدة الطعام واذا بسيدة طويلة القد مليحة القوام رشيقة الحركة جميلة الملابس تبلغ نحوا من ثلاثين سنة من العمر دخلت وجلست بأزائي وحدّقت بعينيها السوداوين البراقتين فيّ هنيهة كمن يتفرس في الآخر تفرساً شديداً يشف عن سؤال ولم يكن سوى لحظة من الزمن حتى ذهلت كل الذهول عند ما أبدت السيدة المشار اليها الاشارة النيهيلستية فرددت الاشارة اليها وأومأت اليها أن تكون مطمئنة ثم أخذنا نتحادث حديثاً عادياً ولما وقفنا للانصراف من قاعة الطعام دنت مني السيدة وقالت لي باللغة الروسية ان غرفتي عددها ٥٢ فاحضر اليّ بعد نصف ساعة

فحضرت اليها في الموعد المشار اليه دون ان يشعر بي أحد ولما دخلت غرفتها أخرجت من طيات ثوبها مقابل الصدر أوراقاً رسمية مختومة بخاتم رئيس اللجنة في بطرسبرج ينبيء بتعيينها رسولاً لاستلام الصندوق فلم أبطيء ان ذهبت الى غرفتي وأحضرته على عجل دون أن يراني بشر ففتحت صندوق ثيابها ووضعته في ناحية خاصّة صُنعت لهذا الغرض ثم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث فأخبرتني ان اللجنة في بطرسبرج قررت استخدام الآلة لتنفجر في قصر الشتاء في الليلة التي عُينت لاجتماع الأمراء والأعيان فيه وقد أخبرتني أنها حضرت من بركسل منذ نحو خمسة أيام وانه لا بُد من رجوعها صباح الغد التالي لكي تصل الى بطرسبرج قبل الأجل المضروب لاتمام المكيدة فقلت لها ان اللجنة العاملة في بطرسبرج تهديها تحيتها وتتمنى لها النجاح في أعمالها فشكرتني وقالت « وقفت نفسي على خدمة وطني » ثم ودعتها وانصرفت من حضرتها

وفي صباح اليوم التالي سألت عن السيدة فقيل لي أنها سافرت ولما سألتهم عن موضع توجهها أجابوا انها قالت أنها ذاهبة الى انكلترا وبعد أن تناولت فطور الصباح عدت الى غرفتي واذا برجل قد دخل عليّ فلما تأملت فيه دهشت شديد الاندهاش لأن الرجل المذكور لم يكن الاّ المسيو غوبيبو فحياني تحية الوداد وقال لي « ظننتك نائماً حتى الآن فرمت زيارتك باكراً ولكن ما أتى بك الى هنا وما أخال الأمر الاّ دخيلة عشق وغرام » فقلت له « انما حضرت الى هنا

لأشاهد اثنين من رفاقي في الدروس لأني كنت في زمرة طلبة العلم هنا » فأجاب « حسناً وأظنك أخبرتني عن ذلك قبلاً ولكن هيا بنا بعد قليل ننزل الى غرفة الطعام ونصرف النهار سويَّة فأجبته الى ذلك ونزلت قبله ولما عدت الى غرفتي وجدت صندوق ثيابي مفتوحاً وأشيائي مبعثرة على الأرض فعلمت أن ذلك فعل صديقي الجاسوس ولكنه لم يكتشف شيئاً مطلقاً

وبعد بضعة أيام بينما كنت أجول في المدينة واذا بحملة الجرائد ينادون « ملحق خاص للجريدة — مكيدة — محاولة قتل القيصر » فاشتريت عدداً واذا فيه تفصيل ذلك الانفجار الهائل فان القاعة الكبيرة للقصر مع ما يجاورها من البناء تداعت للسقوط والخراب وان عدداً غفيراً من القوم جرح ولكنه لم يقض على أحدٍ وعليه تكللت جميع أعمالنا بالنجاح لأن الغرض من هذه المكيدة انما كان ارهاب الحكومة لكي تعلم أنها مع شدة حرصها وجواسيسها وبوليسها لا تأمن مغبة أعمالها وأن يد النقمة تبلغ اليها ولو وضعت من جيوشها وسيوفها حولها حصناً منيعاً

وفي اليوم الذي بلغت فيه لندرا طالعت عدداً من جرائد المساء واذا فيه تفصيل مقتل غريب تحت عنوان « لغز من ألغاز القتل في باريس » وفيه بيان اكتشاف جثة رجل في نهر السين لم يعلم أولاً من هو ولكن عرف أخيراً أنه باتروفسكي وهو الرجل الذي أفشى أمر الساعة الديناميتية الى جواسيس الحكومة الروسية وسفارتها

الفصل السابع

« أوله سقم وآخره قتل »

وقفت ذات ليلة ساعات طويلة على باب الاوبرا وأنا أعرض على المارة والداخلين أعداد الجرائد الكثيرة التي كانت تحت أبطي للبيع فبعد أن بُح صوتي

من كثرة الصراخ لم أبع أكثر من خمسة أعداد وكان حملة الجرائد ينظرون اليَّ شزرًا لمزاحمة رجل جديد لهم في مهنتهم وهم لم يعلموا أني توسلتُ بهذا التنكر لتجسس أمر ذي شأن وبيان الأمر أن قادماً جديداً من بطرسبرج يسمى فورونوف حضر الى لندرا مدعياً أنه تاجر من موسكو ولكن البلاغات الرسمية التي وردتنا بشأنه من ادارة أعمالنا في بطرسبرج جعلتنا في ريبة من أمره وان له علاقة بجواسيس الروس في عاصمة الانكليز فانه بعد انفجار الساعة التي مر بيانها ونسف قصر الشتاء الامبراطوري وجد القيصر ان غويبو رئيس الجواسيس الفرنساوي مقصر في آداء واجباته فأمر بعزله ولذلك ظننا أن هذا الضيف الجديد قد عين مكانه رئيساً لجواسيس الروس في لندرا وقد تبين لي من مراقبته والتنقيب الذي أجريته بهذا الصدد ان الرجل حضر لمهمة سرّية سياسية

ولقد أخذت في تقصي أمره ورقبه مذ اليوم الذي بلغنا فيه خبر حضوره من بطرسبرج فتنكرت بزي بائع جرائد وأخذت أتبع خطواته حتى أصبحت أتبع له من ظله وعليه فقد حضرت هذه الليلة أيضاً لمتابعة أعمالي وأنا معرض للبرد تتساقط عليّ الامطار فتبل ثيابي وبينما كنت واقفاً على انفراد على مثل هذه الحالة الكئيبة واذا بسيدة قد خرجت من الاوبرا عليها وشاح كبير وهي ذات قامة هيفاء تزري بالغصن الرطيب ومقلتين سوداوين يشق لسهامها القلوب قبل الصدور وشعرها جعدي كثيف وما بلغت باب مدخل الاوبرا حتى أسرع اليها جمع من الخدم يسألونها اذا كانت تحب أن يحضروا لها عجلة فالتفتت تحدق بهم دون أن تجيب شيئاً وبعد أن لبثت برهة تنظر الى ما حولها تفرست بي أنا لحظة من الزمن ثم سارت اليَّ فلما صارت على مقربة مني أخذت أصرخ معدداً أسماء الجرائد التي بيدي فالتفتت اليَّ وقالت بالروسية « اعطني أية جريدة شئت يا غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير » فعلت وجهي صفرة الوجل وارتجفت أعضائي من شدة الجزع حتى اصطكت ركبتاي فلما رأت مني ذلك تبسمت ودنت اليَّ ثم همست في أذني اللفظة النهلستية المتعارفة بيننا في سائر أقطار الأرض فزدت اندهاشاً على اندهاش وكدت أسقط الى الأرض من شدة الانذهال

والذهول فنظرت اليَّ بعبوسة وقالت اعطني جريدة فأعطيتها عدداً فأخرجت من جيبها بنساً ثمن العدد ووضعته في يدي مع ورقة صغيرة ملفوفة وقالت « هذه من اللجنة العاملة » ثم ركبت عجلة كانت واقفة بجانبها وسارت لا تلوي على شيء فمشيت الى نقطة لا رقيب فيهـا ووقفت تحت نور أحد مصابيح الشارع ففتحت الورقة واذا بها ما يأتي

« ان الشخص الذي يسلمك هذه التذكرة انمـا هو صوفيا زاغارفنا فتكرم بزيارتها الساعة العاشرة صباح غد في منزلها عدد ٣٤ رتشمند وقدّم لهـا سائر ما تطلبه من الاسعاف اللازم « بول بتروف »

ولم آت على تتمة هذه الأسطر الوجيزة حتى تهلل وجهي بشراً وسروراً لأن اسم صوفيازاغارفنا طار في سائر الآفاق حتى أصبح أشهر من نار على علم فانها سيدة اشتهرت بجرأة اقدامها وتوقد ذهنها وحدة خاطرها وثبات جنانها وهي التي أتت من الأعمال الغريبة ما تندهش له العقول وتحار الأفكار ويكفي أن أوردلك من ذلك مثلاً واحداً وهو أن الجنرال ياغودكن رئيس بوليس موسكو ضايق كثيرين من سكان تلك المدينة بعد محاولة نسف القصر الشتوي بالساعة الديناميتية على ما مرَّ بيانه ونكل بالأبرياء تنكيلاً شديداً حتى أثار حنق السيدة المشار اليها وكانت إذ ذاك قاطنةفي زوريخ حيث كانت سيدة وأميرة بين طلاب العلم والأدب فلماحضر الجنرال المشار اليه الى زوريخ اغوته وسلبت لبه حتى اذا ماخلت به أطلقت عليه مسدسها وأماتته قتلا ولم تكتف بذلك بل حملت سائر المهاجرين الروسيين من طلبة العلم هناك وغيرهم من طلبة العلم الالمانيين على الذهاب الى روسيا والقيام باجرآت مدهشة لايزال يرن صداها في سائر الأقطار الأوربية وذلك بناءً على ما كانت عليه من الجمال الرائع والصيت الذائع والسطوة على عقول ذوي الأدب ولكن كانت في كل ذلك بالغة أقصى الأدب والصون والعفاف حتى ان اسمها وشرفها لم يمسهما سوء ولكن الغيرة التي كانت تشتعل في قلبها للقيام بخدمة الجمعية التي خصصت نفسها لها لم تبق موضعاً لسواها من العواطف كالعشق والغرام ولم يعرف شيء أكيد عن تاريخ هذه السيدة سوى أنها أقسمت للطغمة يمين

الاخلاص في بطرسبرج ثم حضرت بعد ذلك الى سويسرا حيث أظهرت من العزم والاقدام ما حير الرجال

فبعد أن رقبت الرجل الذي حضرت لأجله الى باب الاوبرا وتبعته الى المنزل الذي كان فيه توجهت في اليوم التالي في الوقت المعين الى منزل السيدة صوفيا في رتشمند فوجدته منزلاً أنيقاً فسيح الارجاء يطل على نهر التامس وما يجاوره من المناظر البديعة والجنائن الجميلة وما لبثت في المنزل سوى بضع دقائق حتى دخلت الى صوفيا زاغاروفنا وسلمت عليَّ بوجه ملؤه البشاشة والبشر ولما سألتها أية خدمة أتمكن من القيام بها لها كان جوابها ما يأتي

« اني قدمت انكلترا لغرض سري يختص بجمعيتنا ولقد أثنت عليك اللجنة العاملة في لندرا ثناءً جميلاً وقالت انك قادر أن تكون لي عَضُدًا قويًّا في الغرض الذي أتيت لأجله الى هنا ولا قدرة لي أن أبوح لك به الآن لا لأني لا أئتمنك بل لأن للجدران آذانًا فهل أنت راغب في مساعدتي ؟ »

« اذا كان في سبيل الجمعية فاني أكون لك عونًا على ذلك »

«اذًا اصغ الى ما أقول لك — غدًا يتغير اسمي فأصير صوفيا نبتكوف ابنة الجنرال نبتكوف الذي توفي حديثًا بعد أن كان حاكمًا على سمولنسك وأنت ستكون أخي ايڤان وغدًا يجب علينا نحن كلينا أن نرحل عن المنازل التي نحن فيها الآن وننزل في نزل عظيم في حي الأشراف من المدينة حيث يجب أن يعرفنا كل من يتعرف بنا اننا أخ وأخت »

فأجبتها بالايجاب وعليّ علامات الذهول فلحظت ذلك وقالت « ان كلامي هذا يحيرك ولكن سوف ترى — أيعرفك أحد من السفارة الروسية هنا ؟ » فقلت « لا » فأجابت وهي تتبسم « دعني أدبر الامر على ما أروم وسترى أننا سنكلل بالنجاح »

ثم دعتني لمناولة الفطور معها فلبثت هناك نحو ساعتين ونحن نتجاذب أطراف الحديث ونتناقش في أمور متعددة بخصوص جمعيتنا وما لنا من الحول والطول وما يتطرق أحيانًا الينا من الخلل والفساد وأسباب الضعف والاذى الى غير ذلك

من المباحث الاجتماعية النهلستية ثم استأذنتها بعد ذلك وانصرفت

ولم يمر شهران من الزمن حتى دعيت وشقيقتي الجديدة الى ليلة راقصة في السفارة الروسية فان صوفيا تمكنت من الحصول على رقاع الدعوة لي ولها بطريقة سرّية لم تتبد لي حقيقة أمرها ولما وصلنا الى قاعة السفارة الفسيحة كانت قد حلت الساعة العاشرة مساء فوجدنا السفارة غاصّة بالمدعوين من الأمراء والكبراء والسيدات يتهادين بين الزهور والأنوار ظبيات أوانس يكسف جمالهن الشمس وتزري طلعتهن بالبدور ولكن شقيقتي صوفيا كانت أرشقهن قدًّا وأفتنهن جمالاً

و بعد هنيهة دار الرقص على أنغام الموسيقى الشجية فكان الراقصون كواكب ودراري تدور أزواجاً يتدفق البشر من أوجههم ثم حانت مني التفاتة فوجدت صوفيا متخاصرة مع شاب متوسط القامة براق المقلتين وهي تنظر اليّ باسمة والجمال يتألق في وجهها تألق النور

ولقد كنت انا نفسي بين جملة الراقصين فلبثنا على ذلك ردحاً طويلاً من الزمن حتى أعياني التعب فسددت خطواتي الى غرفة الاستراحة حيث مدت موائد الطعام والحلوى أشكالاً وألواناً فجلست على مقعد وأنا أقول في نفسي ما عسى تكون المهمة التي حضرت لأجلها صوفيا وهي تكتمها أشد الكتمان و بعد هنيهة دخلت صوفيا أيضاً وجلست الى جانبي فسألتها أمسرورة هي في لندرا فأجابتني أنها على أتم الجذل والحبور ثم أفادتني أنها مشتغلة في هذه الليلة بتشخيص رواية غريبة الفصول ثم سمعت صوتاً يكلمها من ورائي فنهضت كالظبية تكلمه فبقيت مترقباً في موضعي أسمع حديثهما فاذا صوفيا تقول لمحدثها

« ألا تخاف اذاً هؤلاء النهلست القتلة ؟ »

فأجابها باسماً « أأخشى بأس مثل هؤلاء وسيبيريا رحيبة تسع ألوفاً من أمثالهم فانه لا يمرّ علينا قليل من الزمن حتى نرغم أنوفهم ونطفئ جذوة ثورتهم ونسحق ذراع قوتهم ولقد بعثت حتى الآن مئات من هؤلاء الى سيبيريا يجرون قيود الذل ويحملون في أعناقهم سلاسل الخذلان وهذا هو السبب الذي لأجله

يودون الفتك بي »

« ولكن ألا تخشى انتقامهم ؟ »

« لا فان هؤلاء الانذال لا يجسرون على الحاق الأذى بي»

« أتجهل أو تتجاهل أن لرسلهم وعمالهم من الجرأة والاقدام ما ليس لغيرهم واني لأخشى أنهم يفتكون بك »

« ان يدهم لأقصر من ذلك ولكن مالنا ولموضوع النهلست هذه الليلة فان كؤوس المسرة طافحة بين أيدينا والسعادة ترفرف فوقنا بأجنحتها وحبيبتي أجمل الظبيات واقفة بجانبي »

« أشكرك على اطرائك اياي شكراً جزيلاً ولكن موضوع النهلست من المواضيع التي أتلهف الى استماعها . ألم تكتشف شيئاً من مكايدهم ودسائسهم ؟ »

« بلى فاني قد اكتشفت شيئاً كثيراً من ذلك وقد أصدرت قبل حضوري الى هنا الأوامر اللازمة لرقب كل خطوة من خطواتهم ولما كان لا بد من المحافظة على حياة القيصر فاني عائد الى هناك بعد نحو اسبوعين حيث أرسل هؤلاء الأقوام زرافات ووحداناً الى أقاصي سيبيريا ولكن مثلك يا حبيبتي لا يوافقها الخوض في مثل هذه المواضيع التي تقشعر لها جسوم الرجال فتكلمي عن الحب والجمال والزهور والنور وكل ما هو جميل لأنك أبدع مظاهر الجمال»

ثم أخذ يبوح لها بشدة وجده وغرامه وانه قد وقف قلبه على حبها ويرجو منها أن تعطف عليه وترق له الى أن باحت له أخيراً بهيامها به فأخذ يدها وقبلها ثم استندت على ذراعه وخرجا من الغرفة فتبعتهما وتأملت في الرجل فاذا هو شاب يناهز الخامسة والثلاثين من العمر وقد تجلت على وجهه لوائح البشر والمسرة ولما سألت عنه بعض الحضور قيل لي انه الجنرال متشنكوف قدم حديثاً من روسيا ترويحاً للنفس وكان ما سمعت من حديثه مع صوفيا بياناً كافياً أنه من جملة عمال الحكومة ولكن لم يخطر وقتئذ في بالي قط أن الرجل انما هو رئيس بوليس موسكو وانه أمّ لندرا للوقوف على حقائق تهمه في مكيدة كان قد كشف أمرها قبل سفره من هناك

ولم ننصرف من القاعة الاّ نحو اقبال الصباح ولما كنت جالساً في العجلة بجانب صوفيا قلت لها ان الرجل الذي كانت تكالمه حسن الخلق والاخلاق وانما قصدت بذلك استجلاء الامر لعلها تأتي على شيء من البيان فاكتفت بقولها انه من ألطف الشبان ثم دخلت في موضوع آخر تخلصاً من متابعة الحديث الأول

ثم بعد بضعة أيام حضر الى زيارتنا متشنكوف فعرفتني به صوفيا قائلة له اني أخوها ومذ ذلك اليوم تمكنت بيننا عرى المودة والولاء فكنا نذهب سوية الى مواضع النزهة وقاعات الغناء وقد تبدّى لي أثناء هذه البرهة أن صوفيا زادت به هياماً ووجداً وأن حبه لها كاد يبلغ درجة العبادة فكان على الدوام يبعث لها من هدايا طاقات الزهور والحلى الثمينة والجواهر النادرة المثال شيئاً كثيراً وأنا أسائل نفسي بعد كل هذا ما عسى أن تكون المهمة السرية التي قدمت لأجلها صوفيا زاغارفنا الى عاصمة الانكليز

وبينما كنت عائداً ذات يوم الى المنزل دخلت قاعة الجلوس على حين فجأة فوجدت صوفيا تتأمل ملياً في شيء تحمله بيدها فمشيت نحوها خلسة وتطلعت وراء ظهرها فوجدتها تنظر الى قطعة من الحلى على شكل دبوس لشعر الرأس بهيئة خنجر صغير نصله من الفولاذ الصرف ومقبضه من الذهب الخالص مرصع بالالماس والحجارة الثمينة فأحببت ملاعبتها فدنوت منها على عجل واختطفت الحلية من يدها فارتعدت ثم نظرت اليّ قائلة « أهذا أنت ياغورتشاكوف ؟ لقد أخفتني » فنظرت الى الدبوس وقلت « ما أجمله فمن أين لك هذا ؟ » قالت « هو يخصني » فأخذته وهجمت به عليها مصوباً رأسه نحوها وذلك على سبيل المزاح فاضطرب جسدها وتراجعت الى الوراء وهي مرتعدة الفرائص ثم هممت بعد ذلك بتجربته على طرف الأنامل فلما رأت ذلك ارتاعت وقالت بلهفة

« ماذا تفعل ياغورتشاكوف ؟ فانك اذا خدشت أصبعك قتلت نفسك » ثم دنت مني وانتشلت الآلة من بين أصابعي ثم أفادتني أن رأس النصل مسمم ولما دنوت به الى جانب النور وجدت أن رأسه حتى نصف النصل قاتم اللون فأخبرتني صوفيا أن خدشاً منه كاف لاماتة رجل

« لماذا تحملين مثل هذه الآلة التي هي سم زعاف ؟ »

فأجابت « ألم تعلم حتى الآن ما الغرض منها ؟ » ثم أخرجت من جيبها كتاباً باللغة الروسية وجلست بعد ذلك على كرسي وقد غطت عينيها بيديها ولجَّت في البكاء فتأملت في الكتاب فاذا به من رئيس لجنة موسكو يفيد فيه عن وصول التقارير الكافية بخصوص الجنرال متشنكوف وان ذنبه قد ظهر لدى الجمعية ظهور الشمس ثم في ذيله صورة حكم اللجنة عليه بالاعدام واناطة تنفيذ هذا الحكم بصوفيا زاغاروفنا فنظرت اليها وقلت

« أتحبينه يا صوفيا ؟ »

— « اني قدمت أولاً الى هنا لأقف على حركات الرجل وما ينوي فعله بعد عودته الى روسيا فخنت الرجل وكتبت بخصوصه التقارير الوافية الى لجنة موسكو وأنت ترى انها حكمت عليه بالاعدام ولقد دب حبه الى قلبي دبيب الخمرة في الجسوم ثم حاولت كثيراً طرد هذه العواطف دون أدنى جدوى فيجب عليَّ أن أنقذه الآن من الشرك الذي أوقعته فيه بنفسي ولكن أنى يتأتى لي ذلك لأني اذا حذرته خنت اللجنة التي ولجتني الامر وأوقعتها في مخالب العطب وجلبت على نفسي حنقها وانتقامها »

ثم وقفت تمشي في الغرفة جيئة وذهاباً وأنا أنظر اليها دون أن أفوه بكلمة أو أبدي رأياً و بينما نحن كذلك واذا بالخادم قد دخل و بيده رقعة الزيارة فتأملت فيها صوفيا وقالت

« هو الجنرال متشنكوف دعه يدخل » ثم وضعت الآلة في غمدها الحريري وأعادت الكتاب وحكم الاعدام الى صدرها واذا بمتشنكوف قد دخل فتقدمت اليه صوفيا بوجه باسم وثغر وضاح تصافحه باليد التي قضى عليها أن تذيقه بها كأس الحمام ثم سلم عليَّ وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث امام موقد النار فبعد أن تكلمنا قليلاً قال متشنكوف

« ان هذه آخر زياراتي لكم »

فقالت له صوفيا « أمسافر من هنا ؟ »

— «نعم ياعزيزتي اني مسافر غداً صباحاً فان عندي أشغالاً ضرورية لابد من قضائها وقد أتيت اليك الآن قياماً بفروض الوداع»

— « انك معجل في سفرك ولكن متى تعود ؟ »

« لا أظنني عائداً الى هنا البتة وقد كان الغرض من حضوري الى لندرا الوقوف على أسرار امرأة اسمها الأول يشابه اسمكِ »

« ماغرضك منها ؟ »

« الغرض القاء القبض عليها وأن أطلب من الحكومة الانكليزية ارجاعها الى روسيا لأنها هي التي قتلت سلفي الجنرال ياغودكن وهي من أشد أعضاء النهلست جرأة واقداماً فقد كانت وحدها الباعث على شيء كثير من الدسائس والحبائل فاذا وُفقت الى العثور عليها فجزاؤها المشنقة »

فارتعدت صوفيا عند سماع هذا الكلام قائلة له « لا تتكلم بمثل ذلك يا متشنكوف ولكني أشعر الآن ببرد خفيف فلا بد لي أن أضع وشاحاً عليَّ » ثم نهضت وقد علت وجهها صفرة الوجل فلبثت ومتشنكوف تتجاذب أطراف الحديث ونشرب شيئاً من الهوسكي و بقينا كذلك ننتظر عودة صوفيا نحو ساعة من الزمن فلما حضرت ودعنا الجنرال متشنكوف وتمنينا له سفراً محفوفاً باليمن والاقبال

و بعد بضعة أسابيع صممت صوفيا على السفر الى موسكو وألحّت عليَّ بوجوب مرافقتها الى هناك حتى لا يكون في سفرها باعث على الشبهة امام اللجنة والظاهر أنها صممت على تحذير عشيقها من الخطر المحدق به مهما كلفها ذلك من المخاطر والمشاق فأخذنا جوازين باسمين منتحلين ووصلنا الى موسكو حيث نزلنا في أحد نزلها الكبيرة ثم أخذنا نسير الى محلات النزهة والملاهي لعلنا نلتقي بمتشنكوف منفرداً لأننا خشينا الذهاب لزيارته في ادارة البوليس خوفاً من العيون وارصاد اللجنة لأن الغرض الذي انتحلته في ذهابها انما هو اتمام المهمة التي أتت لأجلها الى لندرا فتمكنا بوسائل سرية لا يعرفها أحد سوانا من التعرف بعظام الرجال وأمراء المدينة فدعينا ذات يوم لمناولة العشاء في دار أحد الوجهاء فذهبنا بعد أن علمنا أن متشنكوف بين جمهور المدعوين

فلما التقينا به قبل الجلوس على المائدة اندهل جداً وطفر فرحاً فسلم علينا ووجهه يتدفق بشراً وسروراً وجلس على المائدة الى جانبنا وكانت صوفيا في أوج الصفاء والجذل وجمالها الفتّان يسبي العقول وبينما كنت أرقب حركاتها وأتأمل في جمالها راعني منها أمرٌ واحد وهو أني رأيت في شعر رأسها ذلك الخنجر القتال يتألق فيه الماس تألق الشمس فأخبرت متشنكوف أن الغرض من قدومنا الى المدينة انما كان لانهاء أمور مالية تتعلق بتركة أبينا

ولما قام المدعوون عن الطعام وانصرفوا الى غرفة الجلوس شاهدتها عن بعد في حديث مع متشنكوف والحديث ذو شجون ثم ما لبثا أن دخلا غرفة خالية منفردة لا أحد فيها فتبعتهما لأني ظننت من حديثها وأشارتها انّ الوقت قد حان لها أن تحذره عقبى الامر والاغتيال الذي تتوقعه له فسمعته يقول لها وهو جالس على زاوية الطاولة ووجهه باسم

« يا عزيزتي ما هو هذا السر العظيم الذي تودين الاباحة لي به ؟ »

« اخفض صوتك لانه قد يسمع حديثنا أحدٌ وذلك يفضي بكلينا الى الهلكة »

« ما هو مرادكِ من كل هذا — ما هو هذا اللغز العجيب ؟ »

« أقول لك انه قد قُضي عليك بالإعدام »

« أقُضي عليَّ بالإعدام — ومن يتجاسر على مثل ذلك ؟ »

« قضى بذلك عليك النهيليست الذين يتجاسرون على كل شيء وقد قرَّ قرارهم أن تموت كما مات سلفك الجنرال ياغودكين »

فاصفرت سحنة متشنكوف من الجزع وارتجف صوته وهو يحدثها قائلا

« ولكن قولي لي كيف تعلمين شيئاً من ذلك ؟ »

« اخفض صوتك يامتشنكوف - اخفض صوتك فان للجدران في روسيا آذاناً تسمع واصغَ الى ما أقول لك — اني أحبك بل أنت هو الرجل الوحيد بين سائر الرجال الذين التقيت بهم الذي تمكن حبه من قلبي فقد كنت قبل ذلك محاطة بأشراف وأمراء يحسبون ابتسامي نعيماً لهم وحبي سعادة ولكن قبل أن التقيت بك لم أعرف ما هو الحب واني لست بناسية ولاءك واخلاصك لي حتى أنك

طلبت مني في لندرا أن أكون زوجة لك غير أنه لا يتاح لي أن اكون لك غير ما أنا عليه في الوقت الحاضر صديقة ودودة طول العمر » ثم استولت عليها الأحزان فخنق صوتها البكاء

فأخذ رأسها وضمه الى صدره قائلاً

« ولكن لماذا لاتقدرين أن تكوني زوجتي من يقف في طريقك ؟ »

فانتفضت ثم تملصت منه وعادت الى حديثها معه قائلة

« اصغَ اليَّ مرة أخرى يا متشنكوف فاني لم أتجشم مشاق السفر الى موسكو إلا لكي أحذرك من أعدائك وأنقذك من مخالب المنية التي أوشكت أن تنشب أظفارها في شبابك وسأعود هذه الليلة ولن ترى وجهي بعد هذا أبداً ولقد خاطرت في مجيئي اليك بحياتي لأن النهيليست يفترسونني كالوحوش الضارية اذا علموا أني أحذرك من الانتقام الذي يعدونه لك بتجريعك كأس الحمام من يد أحد أعضائهم »

« وما هي هذه اليد التي تجرعني الحمام ؟ »

« هي ذات اليد التي جرعت الجنرال ياغودكن ذلك الكأس وصرعته قتيلاً عند أقدامها أعني بها يد تلك المرأة التي هي ظبية في نوادي الحظ ولبوة في ساحات العراك يد صوفيا زاغاروفنا ! »

« ولكن كيف تأتى لك الوقوف على ذلك ؟ »

« أضرع اليك مرة ثالثة أن تخفض صوتك ولا تتكلم إلا همساً لأنه اذا عرف النهيليست أمري مزقوني وقطعوني إرباً واذا علم البوليس السري أن أقدامي وطئت الأرض الروسية ألقوا القبض عليَّ في مثل غمض الجفن »

— « من أنتِ اذاً ؟ »

— « أتسألني بعد كل هذا من أنا يا متشنكوف ؟ — ألا تعرفني ؟ »

فقلت في نفسي لا بد لي من ايقاف اللجنة العاملة في موسكو على حقيقة الأمر والا كنت خائناً الجمعية التي أقسمت الايمان المغلظة أن أخلص لها الخدمة والولاء ولكن لم يكد يجول هذا الخاطر في خاطري حتى سمعت ورائي وقع أقدام

فالتفت واذا بزمرة من رجال البوليس قد مروا بجانبي وهم بأثوابهم الرسمية وواحدٌ منهم يقول « هو ذا هي ! فاني عرفتها ! »

فقطب متشنكوف حاجبيه وعبس بوجه القوم قائلاً « ما هذا التطاول ؟ »

فوقف الرجال ذهولاً عند الباب وأدوا لرئيسهم التحية العسكرية ثم تقدم رجلٌ من بينهم لابس ملابساً عادية فمسك بذراع صوفيا قائلاً

« ياصوفيا زاغاروفنا اني ألقي القبض عليكِ بأمر جلالة مولاي القيصر لارتكابك جريمة القتل ! »

فصاح متشنكوف بهم قائلاً « أتقولون إنها صوفيا زاغاروفنا لقد ساء والله فالكم »

أما صوفيا فوقفت صامتة وقد علا وجهها اصفرار الوجل والتفتت الى الرجل الذي ألقى القبض عليها قائلة

« أهذا أنت ياتسلنسكي ؟ — أهذا أنت نفسك يا تسلنسكي ؟ — أأنت هو الرجل الذي أنقذته من مخالب المنية كما أنقذت الآن متشنكوف؟ — أهذا جزآء احساني اليك وشفقتي عليك؟ — أتقبض عليَّ لأني أنقذتك من الاعدام؟ — اني أحب متشنكوف ولكن حبي له انقلب عليّ علقما »

فوقف متشنكوف مبهوتاً كمن انقضت على رأسه الصواعق ثم التفت اليها وقال

— « لقد أحببتكِ ولم أدرِ اني أحببت قاتلة وسفاكة دماء »

— « أتحتقرني لاني فديتك بنفسي وأبقيت عليك وأنت في قبضة يدي؟ » ثم التفتت الى تسلنسكي وقالت له « وأنت يا تسلنسكي البوليس السري في بطرسبرج أتنسى احساني ونعمتي التي أنعمت بها عليك وأنقذتك من الردى ؟ أتلقى القبض عليَّ لاني خلصت العالم من جور رجل دأبه الإيقاع بأناس ابرياء ونفيهم الى مناجم كارا في أقاصي سيبيريا الرهيبة و ... »

ولكن تسلنسكي لم يبق لها مجالاً للكلام فقال لها « الصمت أفضل لك من الكلام » ثم أمر البوليس بالقبض عليها وسوقها الى الإدارة ولكن قبل أن تمسها يدهم بسوء أغمى عليها ثم وقعت على الأرض فدنا منها بعضهم لينهضوها ولكن لم

يكن إلا كمثل غمض الجفن حتى رأوا اصفرار الموت على وجهها والدم ينزف من رأسها فوضع أحدهم يده على قلبها ثم قال « لقد قُضي عليها » فادركت حينئذٍ أن الخنجر الذي زينت به شعرها وأعدته لمقتل رئيس البوليس متشنكوف قد غرز في رأسها عند السقوط وأوردها حتفها ولكن ذلك كان أفضل لها من العذاب الذي كانت تتوقعه لو بقيت حية فلبثت لحظة أتأمل في تلك الملامح التي قد غيرتها يد الموت الرهيبة ثم انثنيت مسرعاً من موضعي وما انتصف الليل حتى كنت في طريقي آيباً الى لندرا من حيث أتيت

الفصل الثامن

« عاجزٌ أعمى ترقى فانقلب »

وقع لي بعد رجوعي أني كنت ذات يوم مارًّا في أسواق لندرا عائداً من زيارة صديقين من أصدقائنا الفارّين من روسيا فاصطدمت في طريقي على حين فجأة برجل اعترضني في سيري فتأملته فاذا هو رجل ضرير رث اللباس محدودب الظهر هزيل الجسد فسقط على الأرض من شدة الاصطدام ثم وقف يتلمس الطريق بعصاه وهو يعتذر الي بألفاظ انكليزية كلها لحن إلا أنَّ فيها تلك اللكنة التي يتميز بها الروسي عن سواه في بلاد الغربة فنظرت الى الرجل وقلت له بالروسية

— « من أيّ بلاد أنت يا رجل ؟ »

فظهرت على وجه الرجل علامات الحبور وملامح السرور وقال

— « الحمد لله الذي أراني في الغربة رجلاً من مواطنيَّ فاني يا مولاي روسيٌّ رمى به نكد الطالع أن يقع عليه غضب الحكومة الروسية لأسباب سياسية فنفتني الى سيبيريا بلاد الظلمات والشقاء ولكن الله قيَّض لي مهرباً تمكنت معه من بلوغ هذه الأمصار »

فرقَّ له قلبي لما قاسيت نفسي من ضروب الذل وأنواع النكال أثناء نفيي

الى تلك الأقطار السحيقة ورثيت لحاله رثاء من ذاق طعم ذاك العذاب ولكن كنت على علم من سائر الهاربين والنازحين الروسيين في لندرا أدر عليهم من ثروتي الطائلة خلا المبالغ الجزيله التي كان الرئيس بتروف مفوضاً بسحبها من مصرف انكلترا لهذا الغرض فكان هو الرجل الوحيد الذي لم أعلم حتى الآن من أمره شيئاً ثم أفادني أنه كان منفياً الى مناجم الغاشي الفضية وانه أتيح له الهرب منذ نحو سنة من الزمان ولما كنت أنا أيضاً روسياً تضرع اليَّ أن أصحبه الى منزله وقال ان المكان على مقربة من حيث كنا واقفين

فأجبت سؤله وخصوصاً لأني وددت معرفة شيء من أمره فما سرنا بضع دقائق حتى بلغنا منزله فعجبت لما كان عليه من النظافة ووسائل الراحة مع انه في أقذر أنحاء العاصمة حيث يسكن فقراء القوم ووجدت فيه من المفروشات ما يقر به الناظر وينشرح له الخاطر وكان في وسط الغرفة طاولة مستديرة عليها أقداح الشاي وسيدة رشيقة القوام في ربيع الحياة جالسة على كرسي مريح تطالع كتاباً فلما دخلنا وقفت ونظرت اليَّ بخجل وحياء فبادرها والدها بالكلام وقال لها « يا اليونور لقد أحضرت معي صديقاً من مواطنينا الكرام لم يظفرني الحظ بمعرفة اسمه »

فقلت له هو كورو باتكين لأني رأيت الأمثل اخفاء إسمي الحقيقي الى أن أكون قد عرفت جلية أمر هذا الرجل فتقدمت نحوي الابنة وصافحتني وهي تبسم عن مثل الدرر

ففاتحته الحديث وقلت له مازحاً « أظن أن عيشتك هنا أريح قليلاً من مناجم الغاشي فأجاب باسماً « نعم ومع اني كما تراني ضرير أعمى لا سند لي في هذه الحياة فان معي شيئاً أدرأ به عني الفقر »

ثم أفادني ان اسمه خورشوف وتناولنا بعد هذا الشاي فقصَّ عليَّ أثناء ذلك انه كان في بطرسبرج صقّالاً للحجارة الكريمة فسجن ثلاث مراة على التوالي وحكم عليه بعد ذلك بالأشغال الشاقة المؤبدة في المناجم التي هي وراء اركوتسك فتطوعت ابنته لمرافقته الى منفاه حيث لبث نحواً من خمس سنين

وأخيراً رق له أحد كبار الضباط وخصوصاً لما شاهد في ابنته من الشجاعة والمروءة وعاونه على الهرب فاقتات أثناء هربه بما وصلت اليه يده سواء بالاستعطاء أو السرقة ولبث على هذا المنوال ماشياً على الأقدام نحواً من ألف ميل حتى بلغ جبال أورال الشهيرة وهناك تمكن من ركوب السكة الحديدية على طريق نجني بعد أن تحصل على جواز وجده في جيب رجل ميت على الطريق فتمكن بهذه الوسيلة من السفر عائداً الى أوربا بعد غياب لم يقل عن ست سنوات ثم انه بعد رجوعه الى الوطن أصابته حمى شديدة أفقدته البصر فرأى عندئذ القدوم الى انكلترا خيراً له من من البقاء معرضاً لريبة البوليس في روسيا

ولما أتى على ختام مقاله تساقطت الدموع من عينيه فكان لكلامه وقع شديد في نفسي وخصوصاً لأن البلايا التى حلّت بي لم تزل منطبعة على ذاكرتي فأثار فيّ حديثه عواطف الحنو والشفقة وخصوصاً لأن ابنته شاطرته هذه البلايا وقاسمته سائر الرزايا التى نزت به أما أنا فلم أخبره اني كنت في عداد المنفيين بل اختلقت له تاريخاً لحياتي وسألته بعد ذلك عن المواضع التي مروا فيها الى المنفى والكوارث التي انتابتهم فوجدت أن قد أصابه نصيب وافر مما يصيب الوفا من السيئي الطالع الذين يحكم عليهم بالنفي الى تلك الارجاء القاصية ثم وجه بعد كل هذا خطابه اليّ وقال

« ما حيلتي الآن ؟ فان الدراهم القليلة التي معي ستنفد عما قليل فأصبح مدقعاً لا أملك شروى نقير» فأجبته عندئذ انه عاجز عن الاشتغال بصناعة ما لأنه فاقد البصر فردّ عليّ ولئن كان كذلك فانه يتمكن من اتقان حرفته القديمة وهي صقل الحجارة الكريمة لأن اللمس أرشد الى ذلك من البصر وعلى الأخص لأن حاسة اللمس تكون في العمي أشد منها في المبصرين

فبقيت لحظة وأنا أتفكر في أمر هذا الرجل الذي لم نعلم حتى الآن عنه شيئاً مع ان أسماء سائر أمثاله مدونة في سجلات اللجنة العاملة ونغدق احساننا على كثيرين منهم وعليه رأيت أن لا فائدة من اعطائه الاشارة النهلستية وخصوصاً لأنه أعمى ولكن الرجل تضرع اليّ بلجاجة أن أجد له مركزاً يتمكن به من

الاشتغال بصقل الجواهر فأخبرته اني أعرف رجلاً يهودياً عنده معمل كبير وانه قد يتمكن من الاستخدام فيه فشكرني شكراً جزيلاً ولما هممت بالانصراف وضعت في يد الرجل بضع جنيهات فشكرني على ذلك جزيل الشكر ولكنه قال لي انه يفضل الاشتغال بمهنة شريفة على الاستعطاء من الناس فأثر شعوره واحساسه الرقيق فيَّ ووعدته خيراً ثم خابرت في أمره صديقي اليهودي وهو تاجر شهير إسمه يانكل فرضي باستخدامه أولاً تحت التجربة ولم يمر اسبوع من الزمن حتى كان خورشوف بين عمال الصقل في محل يانكل الشهير

ثم التقيت بالرجل بعد ذلك مراراً فأظهر لي شدة امتنانه ومع كل هذا فاني لم أذكر له ان لي أدنى علاقة بالثوريين الروسيين أو بلجنتهم العاملة في لندرا الاَّ اني عرّفته وأبنته بفريق من القوم فكان ذلك سبيلاً لهم لزيارة البيوت والذهاب الى النوادي الاجتماعية حيث كان وابنته موضوع حديث القوم وسمرهم وكان الرجل اذا تكلم لا يفتر عن ذكر أهوال المنفى ومظالم الحكام الروسيين فكان القوم يظهرون عطفاً عليه وابنته تخفيفاً لهما من كروب الذل ووصمة الفقر وليس ذلك فقط بل انه كثيراً ما كان يقدم خطباً شائقة في المحافل ونوادي الأدب يعدد فيها بلايا النفي فكانت جرائد لندرا تنقل هذه الخطب الرنانة وتعلق عليها من الحواشي والتفاصيل ما لذّ لها وراق ومع انه كان يقول انه نفي من روسيا لاعتباره من أصحاب الأفكار السياسية الحرة فلم يكن يعترف انه من جملة القائلين بلزوم الثورة والأعمال الثورية ولم يوافق على أعمال الارهاب التي كان يقوم بها النهلست فلهذه الأسباب تمنعت عن افادته اني واحد من هؤلاء القوم وقدمت تقريراً وافياً بشأنه الى اللجنة العاملة فأصدرت أمرها لي بمراقبته لعلها تقف على سر هذا الرجل المكنون .

واتفق في مثل هذه الآونة ان اللجنة الثورية العاملة في لندرا نفضت عنها غبار الخمول ونشطت همهما من عقالها واتخذت من الجراءة والإقدام والنشاط مالم يسبق لها اتخاذه من قبل فوزّعت ملايين من النشرات الثورية أعلنت فيها الخطة التي عزمت على اتباعها في اجراآتها الحديثة وهي الضرب على يد العمال

الظالمين وانشاء فروع لجمعية الثورة في انحاء البلاد الروسية وارهاب وقتل سائر من يقوم من الحكام بأعمال البغي والجور والاستبداد وان الغرض من كل ذلك انهاض الهمم الخاملة في طول روسيا وعرضها وامتداد لهيب الثورة في سائر الأصقاع حتى تعلم الحكومة الروسية ان في السويداء رجالاً يقابلون الاستبداد بصارمهم ويفدون الأمة بدمهم

وانتشرت هذه المقالات في روسيا حتى بلغت أقاصي سيبيريا فحصل على أثر ذلك هياج عظيم بين أفراد الأمة وضوضاء بلغت جلبتها عنان السماء وأخذ روح الثورة يمتد الى قلوب الشعب امتداد النار الى الهشيم فاهتزت جوانب الامبراطورية كأنّ تياراً كهربائياً جرى الى أعضائها وارتاعت الحكومة الروسية لذلك ارتياعاً شديداً ووقعت هذه التهديدات على رؤوسهم وقع الصواعق لا يدرون من أين تنحدر عليهم أومتى تصيب منهم مقتلا وكانوا يعلمون حق العلم أن اللجنة العاملة اذا قالت فعلت واذا أرهبت نسفت وان أحرجت فتكت وأصبحت جواسيس الحكومة في حيص بيص لا يعلمون كيف تمكنت اللجنة العاملة من ادخال مثل هذه النشرات ملايين كثيرة دون أن يتمكنوا من الوقوف على أثر لها في البلاد اوعلى ضبطها عند الحدود فأسقط في يدهم وهاموا على وجههم في الأزقة والشوارع يفتشون المطابع والمنازل والحوانيت والبنايات التي على سطح الأرض والأنفاق والكهوف التي تحتها فلم يظفروا من كل ذلك بطائل

وواضح بعد كل هذا البيان ان طبع مثل هذه المنشورات في روسيا نفسها بعد هذا الحذر الشديد من الحكومة وانبثاث جواسيسها في كل صقع وناد اصبح محالاً فكان لا بد إذ ذاك من متابعة العمل في لندرا نفسها وعليه أحضرت اللجنة العاملة أحرفا روسية وصفّافي أحرف من روسيا نفسها وقامت تثابر على العمل في حيٍّ من أحياء العاصمة ووكلت الى اثنين من أعضائنا الذين استحضرتهم من الوطن القيام بجمع الأحرف وطبع الرسائل وذلك سرًّا دون أن يعلم احد مكان المطبعة او العمال وكان اسم هذين الرجلين أينوفتش وستنسكي

وحدث يوماً ما أني كنت في صحبة الرجل الضرير وابنته فالتقينا بهذين العاملين وعرفته بهما وكانا قد علما شيئاً من أحوال هذا الرجل مما كنت أقصه عليهما فذهبنا اجابة لدعوتهما الى منزلهما وجلسنا في الغرفة الامامية أما موضع المطبعة فكان في غرفة داخلية ولم نذكر قط أمام ذلك الرجل الضرير شيئاً عن العمل الذي كان صديقانا منقطعين اليه ثم كنت أتردد والرجل وابنته من حين الى آخر الى موضع هذين الصديقين فكانت ابنته اليونورا تغنى لنا أغنية بولونية غرامية ورخيم صوتها يقع على الآذان في هدو الليل فتهتز له أوتار القلوب

وبينما كنا جميعاً ذات ليلة في منزل صديقيّ المشار اليهما وفي عدادنا ذلك الرجل الضرير جرى أمر دهشت له غاية الدهشة وذلك أنه بينما كنا على هذه الحال وردت مذكرة من اللجنة العاملة لصديقي بخصوص شيء يتعلق بتلك المنشورات فدخلا على أثر ذلك الى الغرفة الداخلية ليتشاورا في أمرها فلاحت مني إذ ذاك التفاتة الى الرجل الضرير فوجدت وراء رأسه على نافذة نشرة غير كاملة الطبع يبلغ عدد صفحاتها ست عشرة وهي النشرة التي كان لوقعها دوي عظيم في سائر الانحاء الروسية وعنوانها « وانّ غداً لناظره قريب » وكان البوليس السري في بطرسبرج وموسكو وغيرهما من المدن حاول جهده ليقف على شيء من سرّ هذه النشرة فلم يفلح فلما وقعت عيني عليها رأيت من الخرق في الرأي أن تكون هذه النسخة معرضة لأعين الزائرين ثم عدت فافتكرت انه لا يوجد في الغرفة سوانا ورجل ضرير لا يبصر وبينما كنت في هذه الهواجس واذا بأحد صديقيّ قد فتح الباب الداخلي وأومأ اليّ للدخول والمداولة معهما بشأن التعليمات التي قد تلقياها الآن من اللجنة فلبثت معهما نحواً من خمس دقائق ولما عدنا الى غرفة الجلوس وجدت ان النشرة الثورية قد اختفت

فاعترتني من جراء ذلك حيرة عظيمة لأن الرجل الذي امامي ضرير لا يبصر ولم يدخل غريب علينا أثناء مداولتنا في الغرفة الداخلية فهممت أن أذكر لذلك الرجل شيئاً من هذا القبيل ولكني خشيت أن ذلك يخدش عواطفه وعلاوة على ذلك فان في مثل هذا السؤال ما يلقي في نفسه ريبة من حقيقة أمرنا فصمت

ولكني عزمت على مراقبة هذا الرجل ومعرفة ما اذا كان هو الذي اختلسها واذا كان الامر كذلك فما الغرض الذي يرمي اليه

فلم يمر سوى بضعة أيام حتى توجهت الى المعمل الذي كان فيه الضرير مستخدماً في صقل الحجارة فوجدت فيه غرفة فسيحة ومكتبة كبيرة مشحونة بأنواع الكتب المختلفة فلما دخلت على الرجل استقبلني بالبشاشة والترحاب ولما جلست قال لي « أظنك قدمت لترى العامل الضرير الذي أحضرته اليّ واني أخبرك انه من أمهر الصناع » ثم فتح خزانة امامه وأخرج منها علبة داخلها حجر كريم فسلمني اياه وقال « انظر اتقان شغله العجيب » فأخذته واذا هو قطعة كبيرة من الالماس صفراء اللون تتألق فيها الاشعة تألق النور فدهشت من إحكام صقلها وقلت « كم ثمنها ؟ » قال « لا أقل من ألف جنيه وستكون هدية من عريس الى عروسه في نحو اسبوع من الزمن » فقلت له « أود أن أرى الرجل مشتغلاً » فأجابني الى سؤلي وصعدنا الى الطابق العلوي حيث كان العمال فاقتربت الى الرجل بكل هدوء حتى لا يشعر بي فوجدته يصقل حجراً كريماً بقطعة من الماس في يده فلم يلتفت الينا بل بقي مواظباً على عمله وكان كلما أخذ في الصقل يعود فيلمس الحجر بطرف سبابته ليحس اذا كان قد أحكم الصنع

وكان الغرض من ذهابي الى الموضع المذكور أمرين أولاً معرفة ما اذا كان الرجل حقيقة أعمى البصر وهو ماظهر لي منه أثناء العمل وثانياً الوقوف على سر تلك النشرة التي اختفت فبعد أن وقفنا أمامه لحظة وهممنا بالعودة وجدت رداء الرجل معلقاً على الحائط فأومأت الى صاحب المعمل اني أقصد المزاح فوضعت يدي في احدى جيوبه فأخرجت منها أنواعاً متعددة من الكتب والاوراق وفي جملتها النشرة المسروقه فلم أقل شيئاً ولكن أعدت سائر الاوراق الى موضعها وودعت الرجل منصرفاً وأنا أفكر في ما عسى أن يكون غرض الضرير من سرقة هذه النشرة

وحدث ذات يوم ان الضرير كان زائراً منزل صديقي العاملين أينوقتش وستنسكسي مرة أخرى فبعد أن لبث برهة قام وهو يقول « لا بد لي من الذهاب

فان ابنتي المسكينة اليونورا لا بد أن تكون في انتظاري وهي وحدها لا أنيس معها ولا جليس يخفف عنها كربة الوحدة والانفراد » فأثر كلام الرجل بي عن ابنته تأثيراً شديداً وقلت له اني أصحبك الى البيت فشكرني وتناول يدي ولما بلغنا منزله وجدنا الفتاة في انتظاره فلما شاهدته أسرعت اليه وهي تقبله فجلست أحدثهما نحو ساعة من الزمن ثم ودّعتهما عائداً الى منزل صديقيّ

ولما بلغت الموضع وجدت مدخله غاصاً بجمهور من المتفرجين وكانت هنالك جلبة عظيمة فاستجليت الأمر فقيل لي ان عدداً من أفراد البوليس قد دخل منزل صديقيّ فتأسفت كثيراً من انكشاف أمرنا ولكني كنت على يقين أن الحكومة الانكليزية لا تمنع اصدار منشورات ثورية في بلادها فاخترقت صفوف المحتشدين الى أن بلغت المنزل فسمعت اينوفتش يقول للبوليس

— « ولكن أحب أن أعرف السبب الذي لأجله تلقون القبض عليّ »

فأجابه البوليس « انا أفدناك حقيقة الأمر » فاجرِ معنا إذ لا فائدة من المقاومة وكنت إذ ذاك لا أزال على باب المنزل بين الجماهير فلم يرني صديقيّ فتبعتهما عن بعد وكان غرضي أولاً الذهاب معهما الى ادارة البوليس ولكن رأيت بعد التروي ان ذلك قد يكون باعثاً على دخولي في الأمر دون أدنى جدوى لرفيقيّ فعدت الى منزلي عاقداً النية على حضور الجلسة التي تعقد في محكمة الغد غير أنه حدث ما عافني عن ذلك وفي المساء تناولت احدى جرائد العاصمة فاذا فيها تفصيل محاكمة الصديقين وزبدة الأمر ان البوليس السري دخل منزلهما فوجد هنالك أوراقاً مالية روسية مزورة وصفائح نحاسية محفورة لطبع تلك الأوراق التي قد وجد منها في المنزل ما تبلغ قيمته عشرين ألف روبل وان العمال الروسيين كانوا قد أبلغوا الحكومة الانكليزية ان الأوراق المالية المزورة قد فشت في روسيا ويظنون أن مصدرها مطابع سرية في لندرا

فوقع هذا الخبر عليّ وقع الصاعقة لأني كنت موقناً كل اليقين أن صديقيّ بريئان من هذه التهمة التي وقعت عليهما وان الأوراق المالية المزورة مع الصفائح النحاسية انما وضعت خلسة بيد سرّية وبينما كنت في أشد الحيرة والذهول خطر

لي بعد بضعة أيام أن أذهب لزيارة معمل الجواهر حيث يشتغل الضرير خورشوف لعلي أقف على شيء من هذا اللغز العجيب فلما بلغت المعمل رأيت صاحبهُ نادباً سوء حظه وهو ينادي بالويل والثبور فسألته ما الخبر فأجابني ان اللصوص قد دخلوا موضعه وسرقوا سائر ماعنده من الحلى والجواهر التي تبلغ قيمتها نيفاً وخمسين ألف جنيه ولما ولجت الغرفة رأيت الكتب مبعثرة في تلك المكتبة والصندوق الحديدي الذي كان مستوراً وراءها مفتوح وان الذي قد أتى هذه الفعلة الشنعاء لا بد أن يكون من أمهر اللصوص فخطر لي إذ ذاك أن أسأل صاحب المعمل عن خورشوف فأفادني انه لم يحضر في ذلك الصباح وكان بجانبنا أحد أفراد البوليس السري فقال انه هو السارق فذهبت واياه الى منزل الضرير فأفادتنا امرأة هناك ان الرجل رحل مع ابنته فجر ذلك اليوم وانه لا يعود قبل شهر من الزمان ففتشنا غرفته دون أن يتاح لنا العثور على شيء يتخذ دليلاً على وجهة سيره فاشتغلت الاسلاك البرقية تنقل خبره الى سائر محطات العاصمة والموانى البريطانية فامَّحى أثر الرجل كأنه شبح من عالم الخيال فتحققت إذ ذاك انه هو الرجل الذي وضع في غرفة عمال المطبعة الأوراق المزورة والصفائح النحاسية وانه بعث بعد ذلك بلاغاً بهذا الشأن الى ادارة البوليس من دون امضاء فتتخلص بذلك الحكومة الروسية من المنشورات الثورية في لندرا وفي الجلسة التالية التي عقدتها المحكمة حكم عليهما بالاشغال الشاقة مدة سبع سنوات ولا يزالون حتى الآن في السجن ولم تغن ايضاحات المحامي الذي أقمناه مدافعاً عنهما فتيلاً

وبعد هذا الخطب عقدت اللجنة العاملة اجتماعاً للنظر في الأمر وبعثت الى سائر فروع جمعيات الثورة بياناً بهذا الصدد تطلب منها اقتفاء أثر الرجل فوردعلينا بعد عدة أسابيع كتاب من جمعية امستردام وفيه البيان الشافي بخصوص هذا المحاتل ومنه علمنا أن الرجل أبرع لص في سرقة الألماس في سائر الامبراطورية الروسية وانه كان فعلاً من جملة المنفيين ولكن لا لجريمة سياسية بل لسرقة جواهر من احد المحلات التجارية فذهب الى سيبيريا ولكنه تمكن من الهرب ولما بلغ لندرا استخدمته جواسيس الروس للوصول الى أمر هذه المنشورات وانه كان

مصاباً بعلة في العينين ولكنه كان يبصر بهما جيداً فترقبته جواسيس لجنة الثورة في امستردام وسلمته للبوليس السري والرجل يحاول بيع الألماسة الصفراء التي هي صقل يده ولما فُتش منزله ظهر فيه نحو نصف الجواهر التي فقدت من انكلترا فبعثت الحكومة الانكليزية تطلبه فأرسل تحت الحفظ وحكم عليه بعد وصوله الى لندرا بالسجن مع الأشغال الشاقة الى عشر سنوات برد ما بقي من تلك الجواهر الى صاحبها الأول

الفصل التاسع

« احدى حظيات لقمان »

كنت ذات يوم سائراً في شوارع لندرا والجو ملبّدٌ بالغيوم والرياح تعصف من كل ناحية والضباب قد أرخى أستاره وأنا أفكر في أمر جواسيس السفارة الروسية وما أنته أيديهم من أنواع المكر وضروب الغدر تنكيلا بنا واذا بسيدة مليحة القد والقوام ماشية ورائي الى احدى محطات السكة الحديدية فلما دخلتُ القطار جلست بأزائي ولكن كنت في تيّار من الهواجس والأفكار فلم أتنبه لها بل أخذت عدداً من الجرائد التي بيدي وشرعت في مطالعته فما تحرك بنا القطار حتى شعرت بيد لمست ذراعي وصوت يناديني باسمي باللغة الروسية فذُعرت من ذلك وتطلعت واذا بالمنادي الفتاة

— « يظهر ياسيدتي أنكِ تعرفينني ولكن لم يسبق لي شرف التعرف بكِ »

— « التقينا قبلا يا مولاي في بطرسبرج دون أن يكلم أحدنا الآخر »

— « أروسيةٌ أنتِ ؟ »

فاحنت رأسها ثم همست في أذني الكلمة التي يتعارف بها النهلست فعلمت انها واحدة منا ثم عادت الى المحادثة فقالت

« سمعت عنك في بطرسبرج وطالعت مقالاتك في المجلات والجرائد

الانكليزية حيث أتيت على بيان المظالم التى تحل بزعماء الحرية ورجال الاصلاح في روسيا وما امامهم من الشقاء العاجل والموت الآجل في أرباض سيبيريا وما ينالهم من الذل والحيف في السجون فخدمت بذلك جمعيتنا أجل خدمة فهل أجسر أن أطلب منك خدمة تقوم بها لنفسي ؟ »

— « ما ذا تطلبين مني يا مولاتي ؟ »

« ان خطراً عظيماً يتهدد حياتي فاذا لم تمد اليّ يد الإخاء والاسعاف وقعت في الهلكة لا محالة وان لي أخاً ينتظرني في المحطة التالية فاذا أحببت نزلنا سوية ثم أقص عليك في المنزل تفاصيل أمري واني لست في ريب انك تكون لي من الناصرين »

فنظرت اليها منذهلاً وقلت « أتخشين سوءًا أيتها السيدة ؟ »

فتنظرت اليّ قائلة « اخفض صوتك فاننا نحن كلينا قد وقفنا أنفسنا على خدمة الوطن وأهله وقد نسيت أن أعرفك بنفسي فأنا ماريانا هنتسي »

ولما رأيت من حماستها وجرأتها واخلاصها في سبيل الوطن ما رأيت لاح لي انها انما قدمت لأمر سري يتعلق بشؤننا في روسيا فأحببت الوقوف على حقيقة أمرها ووعدتها خيراً واني أساعدها جهد الطاقة

فلما بلغنا المحطة المشار اليها نزلنا من القطار ولبثنا برهة ننتظر أخاها على غير جدوى ولما مللنا الانتظار سرنا مشياً على الأقدام حتى بلغنا منزلاً منفرداً في ساحة كبيرة لم يكن عند مدخله سوى كهل هو البواب ولما بلغت غرفة الانتظار نزعت عني وشاحي وجلست على كرسي أنتظر السيدة التي صعدت الى الطابقة العليا بعد أن أقفلت الباب وراءها

فشعرت أثناء جلوسي بانقباض شديد لم أدرِ علته وخصوصاً لما رأيت الغرفة صغيرة والنور فيها ضئيلاً والمفروشات قديمة العهد ورائحة لا يمكن التعبير عنها تتصاعد الى أنفي وبعد أن لبثت نحو ربع ساعة أنتظر عودة السيدة شعرت بدوار شديد وصداع في مقدم الجبهة ثم تلا ذلك نوبة سعال وأسرع تنفسي ولما وقفت شاهدت شيئاً كثيراً من الغبار في أرض الغرفة مما دلني على انها لم تكن ماهولة

منذ زمن قديم فتقدمت الى جانب النار فرأيت هنالك شيئاً كثيراً من الفحم اخذاً بالاحتراق فعلت وجهي صفرة الوجل وتقدمت نحو الباب لأفتحه فوجدته موصداً فنظرت الى النوافذ فرأيت جميعها مقفلة ومسدودة سداً محكماً من الخارج ولم يكن للنار منفذ من موضع ما فأدركت حينئذٍ اني وقعت في شرك واني في غرفة الموت فأخذت أضرب الباب بيديّ ورجليّ فلم أتمكن من فتحه وكان للصدى وسط ذلك السكون دوي هائلٌ هلع له قلبي ثم أخذت أدور في تلك الردهة كمن مُس بالجنون ثم أخذت في الصراخ لعل أحداً من المارة يسمعني ولكن ذلك كان دون أدنى جدوى فمرّت عليّ الثواني ساعات والدقائق أياماً وسمعت فوقي أصواتاً غريبة وشعرت بشيء وقع في أرض الغرفة التي هي في الطبقة العلياء ثم زاد بي الدوار وشعرت بما أمامي من الأشباح يمر مرّ السحاب ولم يكن الاّ كمثل غمض الجفن حتى اعتراني ارتجاف في الأعضاء ووهن عام في الجسد اصطكت بعده ركبتاي اصطكاكاً شديداً ثم عرتني هزة غريبة وثقل دماغي ثقلاً شديداً حتى لم أعد أستطيع تحريك جسدي وبعد لحظة ترنحت ترنح السكران وسقطت على البساط الذي أمامي ووقعت في سبات عميق لا أعي شيئاً

ولا أدري كم لبثت على هذا المنوال ولكن لما أستيقظت وجدت نفسي متكئاً على كرسي في الطبقة العلياء من ذلك المنزل المنفرد وفي يدي مسدسي وعليه لطخ من الدم ثم نظرت الى ما حولي فوجدت الفجر قد انبثق وباباً في جانب الغرفة مفتوحاً الى غرفة مجاورة فظننت نفسي أولاً ان سائر ما جرى لي لم يكن سوى أضغاث أحلام ولما عاد اليّ رشدي وقفت ودخلت الغرفة المجاورة فشاهدت هنالك ما اقشعر له جسدي وهلع قلبي وذلك اني رأيت جثة الفتاة ماريانا التي قادتني الى هذا الموضع موسدة على الأرض وحولها بركة من الدم وازاء القلب جرح من فوهة مسدس أطلق عليها وهو يكاد يلامس جسدها لأن بعضاً من ثيابها كان محروقاً من لهيب البارود وهي جثة باردة لا حراك فيها

فارتعت لهذا المنظر ارتياعاً شديداً لأن الذي يتبادر الى الذهن هو اني نفس القاتل فلبثت بضع دقائق أتفرس في الجثة وأنا في حال الذهول ثم جلت

في الغرف الأخرى فرأيتها جميعها مفتوحة وخالية من السكان فجال في خاطري أولاً أن أبلّغ ادارة البوليس تفاصيل هذه الحادثة ولكني رأيت بعد التأمل ان الأمثل السكوت عن ذلك لأنه لا بد عندئذٍ من القاء القبض عليّ أولاً لتوفر الشبهات عليّ في مثل هذه الجناية فنزلت من على السلم وتوجهت الى منزلي ولما حاولت فتحه رأيت ان المفتاح قد فقد من جيبي فاضطررت الى احضار رجل كسر القفل ووضع قفلاً جديداً موضعه ولما دخلت المنزل وجدت سائر أشيائي مبعثرة في أرض الغرفة وخزائني مفتوحة فتبادر الى ذهني أولاً ان ذلك فعلة بعض اللصوص الذين حاولوا سرقة المنزل وانه لما لم يكن هنالك شيء من الدراهم انصرفوا دون أن يمسوا شيئاً مما في الغرف فلم أرسل بلاغاً الى البوليس بخصوص هذا أيضاً خوفاً من أن الابحاث الدقيقة تبين غيابي عن منزلي والموضع الذي كنت غائباً فيه أثناء هذه البرهة

وبعد التأمل خشيت أن يكون قد وقع من جيوبي في ذلك المنزل الذي كدت ألقى فيه حتفي من الأوراق ما يستدل به عليّ فسألت عن الموضع فقيل لي انه ملك أحد الأشراف وانه معروض للاستئجار فذهبت الى هناك ورأيت خادماً جديداً طلبت منه مشاهدة المنزل فسلمني المفاتيح ودخلت الغرف وقلبي لا يزال يخفق من الهلع فلم أرَ هنالك شيئاً من أوراقي ولا أثراً للجريمة فان الجثة كانت قد نقلت ونظفت أرض الغرف من اللطخ الدموية فعدت من حيث أتيت وأنا أفكر في أمر هذا السر العجيب على غير جدوى

ومرّت عليّ الايام والشهور على مثل هذه الحال وأنا أحاول الوقوف على سرّ ذلك اللغز فذهبت مساعيّ ادراج الرياح الى أن انجلت لي الحقيقة من مصدر لم أكن أتوقعه على الاطلاق وذلك اني كنت ذات يوم في منزلي واذا بالخادم قد دخل عليّ وبيده رقعة زيارة من أحد أصدقائي القدماء واسمه مالر فلقيته بالبشاشة والأنس وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث الى أن أتيت على ذكر تلك الحادثة فتبسم تبسم رجل له شيء من الاطلاع على دخيلة الأمر فسألته « أتعرف شيئاً من ذلك ؟ » فضحك وقال أعلم كل شيء وعند جهينة الخبر اليقين فذهلت لكلامه

وقلت « أستحلفك بالله أن تقص عليّ ما تعلمه من أمري فاني أكاد أذوب تشوقاً الى ذلك فشرح لي الحديث الآتي

« ورد على اللجنة العاملة منذ عدة أشهر بلاغ لم تقف عليه في حينه لأنك كنت وقتئذٍ منهمكاً في واجبات جمعيتنا خارج لندرا ومفاد هذا البلاغ ان ماريا ناهنشي وهي الابنة التي ذهبت معها الى المنزل المذكور قادمة من بطرسبرج وهي منتظمة في سلك جواسيس الحكومة الروسية وان الغرض من حضورها الى لندرا هو أن تتوصل بطريقة من الطرق الى قتل المثري الشهير والثوري العظيم غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير ! »

فالتفت الى صديقي منذهلاً وقلت له « أكان غرضها من القدوم الى هنا اعدامي ؟ »

فأحنى صديقي رأسه وعاد الى تتمة مقاله

« ولما عرف الرئيس بتروف ذلك عين عدداً غفيراً من جواسيس اللجنة للسهر على حياتك ومراقبة سائر حركاتك لكي يكونوا مستعدين لانقاذك من مخالب المنية على الدوام دون أن تكون أنت نفسك شاعراً بشيء من ذلك وكنت وقتئذ في عداد من نيط بهم القيام بهذه المهمة وبينما كنت يوماً سائراً في حراستك مع صديق آخر وجدناك والسيدة المشار اليها عند المحطة فدخلنا القطر وتبعناكما حتى رأينا كما داخلين البيت ولم يكن هناك سوى البواب ولكنه ليس بواباً بل جاسوساً آخر من جواسيس الحكومة حضر برفقة ماريانا لانجاز الجريمة فلما رآنا اختفى أما نحن فلم يكن سوى نحو ربع ساعة من الزمن حتى دخلنا وراءك المنزل المذكور ولما لم يفتح لنا أحد عند قرع الباب كسرناه وأخرجناك من تلك الغرفة المظلمة وأنت في حال الاختناق والغيبوبة وأصعدناك الى الطبقة العلياء وبينا نحن وقوف على الباب اذ سمعنا محادثة أفضت الى مخاصمة بين امرأتين الواحدة منهما ماريانا وهي كانت مصممة على قتلك والأخرى مادام كريشفسكي وكانت ترغب في الاكتفاء بالحصول على الأوراق التي في جيبك وقد ظهر لنا من حديثهما وخصامهما انها كانت تودك كثيراً

فاعتراني الذهول وقلت له « ولكن مادام كريشفسكي عضو من جمعياتنا الثورية فكيف تتآمر مع جواسيس الحكومة عليّ » فقال

— « ان مدام كريشفسكي كانت كذلك ولبثنا نعتقد بصدقها واخلاصها حتى هذه الحادثة التي انجلى لنا بعدها أمرها وانها في الحقيقة من عمال الحكومة الروسية وبعد أن لبثنا واقفين نحو دقيقة من الزمن أغلظت ماريانا الجواب لمدام كريشفسكي فأشهرت عليها هذه المسدس وأطلقته فدخلنا على صوت تفرقع البارود فذعرت القاتلة وصرخت بأعلى صوتها فاضطرتنا الى تركك هناك خوفاً من حضور البوليس لأننا كنا متوجهين تلك الليلة بمهمة سرّية الى ايطاليا فحتى تنفي مادام كريشفسكي عن نفسها تهمة القتل أبقتك هنالك ووضعت المسدس في يدك وخرجت أما البواب فهو كما ذكرت لك داخلٌ في هذه الدسيسة وهو الذي انتشل من جيبك المفتاح ودخل منزلك وأخذ منه ما يهمه من الأوراق ثم تمكنت مدام كريشفسكي بواسطة عمالها من نقل الجثة بعد خروجك من المنزل دون أن يشعر بها أحد ولكننا قدمنا تقريراً فيه البيان الشافي الى اللجنة العاملة فقررت اللجنة الحكم عليها بالاعدام »

— « ولكن أين هي الآن ؟ »

— « في بروكسل ولكن أنت تعلم انه متى صدر حكم اللجنة العاملة فلا بد من انفاذه »

فتعجبت من ذلك كل العجب ثم ذهبت مع صديقي للتنزه في بعض حدائق العاصمة فاشترينا عدداً من أعداد جريدة التيمس الشهيرة وفيما كنت أقلب صفحاتها عثرت على تلغراف من مراسلها في بروكسل فيه ما يأتي

« من الأخبار التي اهتزت لها أنحاء هذه المدينة هو أن السيدة الروسية مدام كريشفسكي المشهورة بالغنى والجمال الرائع وُجدت هذا الصباح مقتولة في فراشها بطعنة سكين في القلب ولم يتمكن البوليس من اقتفاء أثر الجاني »

فتبادلت وصديقي نظرات شفت عن معنى عميق ولكننا لم نفه بهذا الخصوص بكلمة واحدة

الفصل العاشر

« ما تكنُّ صدور الغواني »

قصصت عليك يا عزيزي الطبيب أن ضميري يبكتني على ما صدر مني من الجرائم وما اقترفت من الذنوب في سبيل الذود عن حقوق أمتي والأخذ بثار أبي وأمي وشقيقتي ولكن أرسخ هذه الذنوب صورة في مخيلتي وأشدها وزرًا هو ما أضطرتني الظروف والأحوال السياسية الى القيام به كما أقص عليك تفصيله

حدث أن سيدة روسية بالغة منتهى التهذيب والعلم تسمى مدام شنكوف نزلت في لندرا قادمة من روسيا ولم تلبث فيها ردحًا من الزمان حتى أصبحت من أشهر سيدات المدينة تختال في قصور الأشراف والأمراء وتميس في محافل الحظ واللهو كقضيب من البان اذا تكلمت كان حديثها درًا واذا كتبت تهافت القراء على مطالعة مقالاتها في المجلات والجرائد فصار من هم لجنة الثورة الوقوف على سر هذه السيدة لأن مظاهر الثروة التي كانت تلوح عليها والنفوذ الذي أحرزته في قليل من الزمن جعلنا في ريبة من أمرها خشية أن تكون من عمال الحكومة الروسية وهي ريبة بلغت عندنا حد اليقين لأنه لم يطل أمرها حتى نشرت مقالات رنانة أتت فيها على اطراء القيصر وعماله اطراءً شديدًا فأصبح من همنا حينئذٍ بث العيون والارصار عليها من كل جانب

وبعثت اللجنة الى سائر الفروع الروسية تستجلي أمر هذه السيدة فلم يردنا بشأنها ما يشفي الغليل ولبثنا كذلك في حدس وتخمين حتى وردنا كتاب من فرع الجمعية الثورية في خيف مفاده أن السيدة التي انتحلت اسم مدام شنكوف هي في الحقيقة امرأة رجلٍ هو رئيس بوليس تلك المدينة وانها كانت في الماضي سببًا في نفي كثيرين أخصّهم من طلبة العلم في بطرسبرج بينهم نفر من خيف نفسها ولما خشيت بعد ذلك العودة الى خيف أو البقاء في بطرسبرج خفي أثرها حينًا من الدهر فأرسلنا صورتها مأخوذة من احدى المجلات الانكليزية وبعثنا بها الى خيف

فورد البيان الشافي أنها هي نفس المرأة وان قدومها الى لندرا لم يكن الا للانخراط في زمرة الجواسيس

وكان أمر رقيبها ضربة لازب علينا لان اللجنة العاملة كانت قد عقدت النية على اتيان ضربة ترقص لها عجائز وائل ولا تقل في نتائجها وخطارتها عن الضربة التي أوردت القيصر اسكندر الثاني حتفه — تلك الضربة القاضية التي كانت على روسيا والعالم المتمدن بلية طامية ولكن عمال الظلم في الحكومة والاستبداد الأثيم والجور الفاحش الذي وقع على رفاقنا في روسيا احرج صدور اللجنة العاملة في لندرا حتى أعمى ذلك بصيرتها فعقدت النية على اهلاك القيصر اسكندر الثالث كما سأفصل لك كل ذلك فيما يلي ولما كان وجود مثل السيدة مدام شنكوف في عداد جواسيس لندرا خطراً كبيراً على أعمالنا السرية قررت اللجنة مراقبة كل حركة من حركاتها وأناطت هذه المهمة بي لعلي أقف على الغاية التي تتوخاها السيدة المشار اليها في قدومها الى انكلترا والاقامة بين ظهراني أهلها لأنه أصبح للمقالات التي نشرتها في جرائد لندرا وقع شديد فسفهت أقوال الكتبة الذين يزعمون أن سيبيريا بلاد الشقاء وأن سجونها جحيم أرضي وأنكرت على الكاتب الشهير جورج كنان ما أتى على ذكره من أهوال تلك السجون والديار التي تقشعر لها الابدان

فاضطررت للوصول الى هذا الغرض للتنكر فاستأجرت منزلاً جديداً في العاصمة وانقطعت عن زيارة اللجنة العاملة في مركزها وكانت اذا اضطرتني الحال الى مذاكرتهم في أمر اجتمعنا في ناحية أخرى من نواحي لندرا حتى لا يكون لأحد سبيل للمظنة بي فانتحلت اسم شارل لانكور ولما كنت أحسن التكلم بالافرنسية جيداً لم يشك أحد في انتحالي هذه الجنسية ولم يمر طويل من الزمن حتى تعرفت بمدام شنكوف وأصبحنا صديقين حميمين فكنا نذهب اكثر الاحيان الى الملاهي والاجتماعات سوية الى أن دعانا يوماً ما أحد الاصدقاء أن نصرف بضعة أيام مع أصدقاء آخرين في قصر خاص له في جوار لندرا

وبينما كنت جالساً واياها ذات يوم تحت الأشجار الغضة والأغصان

النضرة في جوار القصر نظرت اليها باندهال وقلت لها « يا نينا » وهو اسمها الأول « انك أجمل امرأة رأيت في حياتي فان لك عيوناً ساحرة وجفوناً تشق سهامها القلوب »

فنظرت اليَّ باندهال وقالت « مادعاك الى هذا التمليق ؟ »

« دعاني الى ذلك يا مولاتي جمالك الرائع وحسنك الذائع الصيت وأنت تعلمين أننا نحن الباريزيين أخبر أهل الأرض بملامح الحسن و بديع الجمال »

« لا بدّ لي أن أخبرك يامولاي اني متزوجة منذ نحو سنتين ولي زوج ... »

فلم أمهلها لتنجز مقالها ولكن أجبتها « ان هذا لايهمك كثيراً »

« كيف تعلم ذلك ؟ ومن أخبرك بالامر ؟ »

« لا أحد ولكن لاسبيل لكِ الى نكرانه فاني أراك غير سعيدة »

« لا أظنك مخطئاً في ما تقول ولو أخبرتك حقيقة أمري لأخذ منك العجب مأخذه »

ثم صمتت لحظة بعد ذلك وأخذت تلاعب الزهور التي أمامنا على جوانب المياه فنظرت اليها واذا هي بالحقيقة الجمال وقد تجسم فان احمرار خديها كان كالجلنار ولون ذراعيها وعنقها يشف عن بياض ناصع وقامتها هيفاء كالرديني فأحنت رأسها نحوي وهي لا تشعر بذلك كانها في حلم ثم لبثت تلاعب الأزهار فلم أتمالك أن أبث لها شيئاً من هيامي ووجدي و بعد حين من الزمن شرحت لي حقيقة أمرها وأنها متزوجة برجل يشغل مركزاً مهماً في الحكومة الروسية ولكنها لم تذكر أن اسمه مرلوف ولا أن موضع اقامته في خيف كما كنت عالماً ولكنها اكتفت بقولها ان عيشتها معه لم تكن راضية نظراً لما كان عليه الرجل من شراسة الأخلاق واخلاف عهدها فاضطرت الى تركه والقدوم الى انكلترا حيث لا أعداء لها ولا حساد يشون بها ولما أتت على ختام حديثها خنق صوتها البكاء وجرت من مقلتيها العبرات

فحاولت جهدي ارضاءها وقلت لها يلزم أن تتناسى حياتها الماضية وأن تتمتع بما أمامنا من جمال الطبيعة وشذا الزهور وتغريد الطيور

فتفرست فيّ وقالت « أصبت ولكنك لا تدري أحوال الروسيين في الهيئة الاجتماعية فانك رجل فرنساوي تعيش تحت سماء الحرية »

« اني أتوق كثيرًا الى معرفة شيء من أحوال الروسيين وخصوصاً أقوام النهلست لأني قد سمعت وطالعت شيئاً كثيرًا عنهم »

« لماذا تسألني عن النهلست وكيف يتأتى لي أن أعرف شيئاً عن هؤلاء القوم الذين دأبهم الدسائس والمكائد »

« ولكنكِ روسية وكل روسي يعرف شيئاً عنهم »

« لقد أصبت في زعمك ولا بد من عذر لهؤلاء الاقوام على ما يأتون من الجرأة والدسائس فانك اذا أسأت الى رجل أو ظلمته أو نفيته اذا تظلم أو سددت فاه اذا تكلم أو ضربته اذا تألم ثار في رأسه أخيرًا ثائر الغيظ والحنق وقد يحمله الياس على طعنك أو رميك بقنابل الديناميت واذا نظرت الى الحقيقة نظر العاقل وجدت الحكومة الروسية معملاً هائلاً للقتلة وسفكة الدماء من سائر طبقات القوم »

فعجبت من كلامها كل العجب وخصوصاً بعد الذي طالعت من مقالاتها في الجرائد والمجلات الانكليزية مما كانت تشد به أوازر الحكومة الروسية فتطلعت اليها بلهفة وقلت

« أتستحسنين اذًا عمل هؤلاء الثوريين ؟ »

« اعلم أن الروسي لا يجسر على الاجهار بآرائه على رؤوس الاشهاد ولكنه لا بد لي من الاقرار لك ان سائر هذه الامور لا تهمني الآن لأني قد نُفيت من بلادي »

فقلت في نفسي ما أشد دهاء هذه المرأة فانه يكاد يفوق جمالها فتأملت ذلك الموقف وما كانت عليه الطبيعة من المهابة والجمال ولا سيما لأن الشمس أشرفت على المغيب وأخذت الطيور تأوى الى أشجارها للمبيت ودهشت مما لهذه المرأة من طلاقة اللسان وجرأة الجنان وفيما أنا غارق في أبحر الأفكار اذا بالسيدة قد أخرجت من جيبها لفافتي تبغ أشعلت منها واحدة وقدمت لي الأخرى

فقبلتها شاكرًا ثم عدت الى حديثنا وقلت لها

« ولكن طالعت يا مولاتي بعض مقالاتك في جرائد العاصمة فوجدتك تحامين عن الحكومة محاماة شديدة »

فتبسمت وقالت « اني أنشر أحيانًا مقالات في مجلات القوم ولكن أنت تعلم ان الكاتب لا يسطر على الدوام حقيقة أفكاره الحرة فانك لو قطنت روسيا حيناً من الزمن لأدركت شدة الخطر الذي يحيق بمن يجسر على انتقاد أعمال الحكام »

وفيما نحن كذلك واذا بساعة القصر تنبهنا أن قد آن وقت العشاء فدنوت منها وقبلتها فلاعبت وجهي بيدها وهي تبتسم وعدنا الى منزل مضيفنا

وبينما كنا جالسين على مائدة الطعام في صباح اليوم التالي أتى الخادم الينا بكتب البريد وكنت جالساً حذاء مدام شنكوف فوضع أمامها كتابين أحدهما بخط رفيع يدل على انه كتابة سيدة والآخر في غلاف مربع عليه علامة الحكومة الروسية الرسمية وهي نسر ذو رأسين وطابع من طوابع الحكومة فلما شاهدته طوته ووضعته في جيبها على عجل

وفي المساء بينما كان المدعوون في احدى القاعات اجلت نظري فلم أجد السيدة الروسية بينهم فسألت عنها احدى وصايف القصر فعلمت أنها لبست وشاحها وقبعتها وذهبت للتنزه على جوانب النهر فتبعتها وكان الوقت صيفاً والسكون سائدًا على الطبيعة حتى أن أوراق الاشجار لم تكن تتحرك فاتخذت طريقاً أخصر من التي جرت عليها وذلك اني سرت في مرج صغير أمام القصر تحف به الاشجار الباسقة والزهور العطرة ولما بلغت منتهاه سمعت أصواتاً فعرفت صوتها وكانت تتكلم بالروسية فسمعتها تقول

« ماذا يجب عليّ فعله الآن ؟ »

فأجابها رجل بقوله « افعلي ما يترتب عليك فعله فقد وردت عليك اليوم التعليمات من وزارة الداخلية »

« كان الأولى بها السكوت عن ذلك فاني قد أنجزتُ أعمالي »

« اذا كان الأمر كذلك فاخبريني اذاً ما هي الدسيسة الجديدة ؟ »

« اني لم أنجز تقريري حتى الآن ولكن يجب عليك أن تعلم اني في خدمة الحكومة وليس في خدمتك أنت »

« اعذريني يا مولاتي على هذا التطاول فان محبة الوقوف على الأخبار حملتني على ذلك »

« ان محبتك الوقوف على الأخبار تضرني وتنفعك فانك ستذهب بعد ذلك رأساً الى الجنرال اسكلوف وتبيعه هذه الأخبار ولكن يجب عليك أن تفقه ان المرأة التي تكلمك ليست دونك دهاءً »

« اعذريني يا مولاتي ولكن أؤكد لكِ ان أسرارك تكون في أمن حريز »

« كما كانت عند ما أطلعتك عليها في باريز بعد جد النهار وسهر الليل حتى اكتشفت المكيدة فكانت نتيجة كل ذلك انك ذهبت وطيرت التفصيل على جناح البرق فرقاك الامبراطور ورصّع صدرك بالوسامات ونفحك بالدنانير أما أنا فلم تكن نتيجة اتعابي سوى الشقاء »

« ولكن ما ضرّكِ فانكِ زوجتي »

فأجابته بنغمة كلها ازدراء واهانة

« ألاَ تزال تقول اني امرأتك وقد افترقنا وليس بيننا بعد ذلك أدنى صلة فبأي حقّ تقتفي أثري الى هُنا ألاَ أقدر على متابعة هذه الأعمال الممقوتة دون أن تكون لي شريكاً بها ؟ »

« ولكني أساعدكِ يا نينا وأعتقد أنه اذا اجتمعت كلمتنا على أمر سهل علينا انجازه »

« انّ ذلك لمن المحال أما ما يتعلق بزواجنا فانت أدرى اننا تزوجنا ولكننا لم نعش معاً قط »

« ألاَ تذكرين انيَ خلصتكِ مرة من الموت ؟ »

« أليس ذلك واجبات الزوج لزوجته ولكن مالنا ولكل هذا الحديث فانه لا بد لي من العودة الى القصر فان سيدته في انتظاري »

« يجب عليك أولاً أن تبقى هنا الى أن آتي على تتمة مقالي فانه لا بد لكِ من العودة الى روسيا للاقامة معي هناك »

« اذا كان الأمر كذلك فأخبرك يا مرلوف اني أكرهك كرهًا شديدًا وان الموت لأسهل عليّ من مساكنتك »

فظهرت على الرجل علامات الغضب وصاح بها بأعلى صوته

« أهذا جوابكِ لي — ؟ اني والله لأقتلنَّكِ »

« ان يدك لأقصر من ذلك »

« أطلب منك الآن أن تظهري لي سر هذه المكيدة الجديدة التى قد اكتشفتِها وإلاّ فاني أقسم بالله أن أدق عنقك بيدي في مثل غمض الجفن ثم أرمي بك الى هذا النهر »

ثم تلى ذلك صوت عراك سمعت في خلاله نينا تقول

« دعني أيها الجبان فقد خنقتني — دعني — اليَّ يا أهل الغوث »

فتقدمت إذ ذاك من موضعي وأنا أمشي الهوينا حتى لا يسمع لوقع قدمي صوت فرأيت من خلال الأغصان الضابط مرلوف واذا هو رجل يناهز الخمسين من عمره صغير العينين قصير القامة كبير الشدقين على وجهه ملامح الشراهة والطمع لأن مبدأه الوحيد في العالم هو عبادة المال سواء كان من أعدائه أو أصدقائه وكثيرًا ما استخدمه النهلست لقضاء أوطارهم من الحكومة الروسية وهو لا يزال في خدمتها ولما شاهدته وجدته منحنيًا فوق امرأته ويداه في عنقها وهو يتهددها لكي تبيح له بما وقفت عليه من الأسرار وبينما كنت على وشك العودة الى مخبأي سمعت مرلوف يسب ويلعن ثم صراخ امرأة مزق كبد الجو ثم سقوط جسم في الماء فتطلعت واذا ليس هنالك من رجل أو امرأة فنظرت الى الماء واذا على سطحه حلقات تتمعج تحت أشعة القمر ولم يكن الاّ كمثل غمض الجفن حتى هدأ اضطراب المياه فوقفت حائرًا لا أدري ماذا أفعل ثم أخذت أسير على ضفاف النهر وأنظر الى الأنجم والأشجار التي على جانبيه ولما لم أرَ شيئًا أسرعت بالعودة الى المنزل وأعضائي ترتجف مما سمعت ورأيت

ولقد كان لفقدان مدام شنكوف في ذلك القصر المنيف في ضواحي لندرا ضجة وصخبٌ في الجرائد دون الوقوف على شيء من الحقيقة ولما رأى الزائرون ما آل اليه أمر هذه الدعوة انصرفوا فرأيت الأمثل أن أكون في جملة المنصرفين لأن المكث أصبح حملاً ثقيلاً على الزوار والضيوف ولكن تمكنت قبل عودتي من فحص سائر أشياء السيدة لعلي أقف على سر من أسرارها فذهبت اتعابي ادراج الرياح

وعند عودتي الى لندرا قدمت تقريرًا مفصلاً بما جرى الى اللجنة العاملة فأمرت بارسال كتب الى سائر فروع لجان الثورة لمعرفة ما اذا كان الرجل مرلوف وامرأته لا يزالان في قيد الحياة واذا كان الامر كذلك فما مبلغ علم المرأة من المكيدة التي كنا على وشك انجازها حينئذ وهي نسف قسم من قلعة شلسبرج وتخليص سائر المسجونين السياسيين هناك فكان يتحتم علينا اذ ذاك معرفة ما اذا كان هذا الظابط وامرأته لايزالان في قيد الحياة وهل يعلمان شيئاً من هذه المكيدة الجديدة وأرسلنا صورة الرجل وامرأته الى سائر فروع الثورة دون أن نتمكن من الحصول على خبر يوثق به

ولبثت مع بعض الاصدقاء نرقب منزل السيدة التي دعت نفسها مدام شنكوف نهارًا وليلاً ونحن نتراوح في العمل ونرقب الجيرة بكل حرص واعتناء لأن الاساليب التي كنا نسير عليها بديعة في بابها وعلى غاية الانتظام والدقة حتى أنه متى أصدرت اللجنة العاملة امرها برقب أحد كان لاخلاص له ولا مناص

ولم يكن بعد هذا سوى حين من الزمن حتى وُجدت جثة الظابط مرلوف طافية على وجه الماء ولما تأكدنا أنها بالحقيقة جثته وان امرأته لم يظهر لها أثر وجهنا اهتمامنا الى انحاء أخرى من جوار مدينة لندرا وحدث أنه بينما كنت برفقة أحد الأصدقاء صباح يوم نتمشى على ساحل البحر في احدى قرى انكلترا التي على الشواطىء شاهدنا عن بعد شبح امرأة ذاهبة الى القرية من جهة الشاطىء فتأملتها جلياً فاذا هي السيدة مدام شنكوف فكدت أطير فرحاً لهذا الاكتشاف وأخذنا نقتفي خطواتها حتى رأيناها دخلت نزلا هناك معروفاً بنزل الملكة منتحلة اسم مسز وليمس

وبعد هذا الاكتشاف بساعتين كنت بين النازلين في ذلك النزل فاستأجرت غرفة في ذات الطابق الذي كانت فيه نينا وعقدت النية على لزوم العجلة في العمل وبعد العشاء رأيتها داخلة غرفتها فوضعت في جيبي منديلاً وزجاجة صغيرة وذهبت توًّا الى غرفتها ودخلتها دون قرعٍ على الباب فوجدتها مستلقية على ديوان من الحرير فقلت لها

« ها اننا ياسيدتي فقد التقينا مرة أخرى »

فلما رأتني ذعرت ذعرًا شديدًا واحمر وجهها من شدة الغيظ وتأملت فيَّ قائلة « لا تظن أيها الرجل اني كنت جاهلة أمرك قط فانت النهلستي المعروف غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير فاخرج من حضرتي وإلاّ قرعت الجرس ودعوت الخدم لاخراجك بالقوة

فنظرتُ اليها باسماً وقلت لها « انك لن تفعلي ذلك يا سيدتي » ووقفت بينها وبين الجرس ولم يكن الا كمثل غمض الجفن حتى أخرجت المنديل وسكبت عليه شيئاً من الزجاجة التي في جيبي ووضعته على أنفها وفمها معاً فحاولت التملص مني ولكن لم يكن سوى دقيقة من الزمن حتى استلقت على الارض وقد شهقت شهقة طويلة وفقدت الشعور ثم فتحت خزانتها فوجدت هنالك كتباً رسمية من وزارة الداخلية وصورًا فوتوغرافية فوضعت سائر هذه الاشياء في جيبي ولما هممت بالانصراف خطر لي أنه قد يمكن أن تكون قد خبأت أهم الاوراق في طيات ثوبها ففككتُ أزرار صدرتها واذا برزمة قد برزت على شكل ثدي اصطناعي طيها مذكرة فيها أسماء أعضاء اللجنة الثورية في لندرا وأسماء مشاهير أعضاء الجمعية وفي صدرهم اسمي أنا نفسي وبعد قراءة الورقة وضعتها في جيبي ثم نظرت في وجه السيدة واذا لونه قد علته صفرة الموت فوضعت يدي على قلبها واذا به ساكن لا حركة فيه على الاطلاق فعلمت اذ ذاك أني قد نشقتها جرعة كبيرة من الكلوروفورم أودت بحياتها فوقفت أمامها لحظة مبهوتاً وقوف القاتل أمام المقتول فترنحت من شدة الأسى ترنح السكران وكدت أسقط على الارض ولكن تجلدت وخرجت من الغرفة دون أن يشعر بي أحد من الناس وحتى الآن لاتزال

رائحة الكلوروفورم واسمه في مخيلتي جزاء هذه الجناية العظيمة التي قد اقترفتها

الفصل الحادي عشر

« صعقات موسى يوم دُكّ الطور »

لابدّ لي الآن من أن أقص عليك يا طبيبي تفاصيل تلك الحادثة العظيمة التي دوت لها ارجاء أوربا واهتزت لوقعها انحاء العالم المتمدن تلك الجناية العظيمة التي لا تزال حتى الساعة تقلق ساعات نهاري وهدو ليلي بعد هذه السنين الطويلة ألا وهي محاولة اغتيال القيصر اسكندر الثالث والقيصرة حين نسف قطارهما الملكي وبصحبتهما نخبة وزراء الامبراطورية وجلة رجال الأمة وزهرة شبان الأشراف وقد لبث تفصيل هذه المكيدة حتى الساعة طيّ الخفاء والكتمان اذ لم يتسنّ لاحد الوقوف على أسرار هذه الدسيسة التي أدهشت أدهى الجواسيس وأعاظم السياسيين ونخبة الكتاب وكان من أمرها أن نحوًا من خمسين شخصاً من السيدات والرجال الابرياء حُكم عليهم بالنفي الى مناجم الفضة من أقاصي سيبيريا وهم برآء من كل جناية بينا أن الجانين الحقيقين تملصوا ولم تتمكن الحكومة بعد الجهد الجهيد والعناء الشديد من الوقوف على شيء من أثرهم

ولما لم يكن بد من التحفظ التام والحذر الشديد في القيام بهذه المكيدة التي يصح أن يقال عنها أنها أعظم وأجرأ مكائد النهلست نقلت اللجنة العاملة نادي الثورة الى قهوة حقيرة من شارع لندرا خوفاً من جواسيس السفارة الروسية فانعقدت الجلسة الرسمية في منتصف الليل وكان الرئيس بتروف قد عاد ذلك النهار من بطرسبرج فجلس في كرسي الرياسة تحف به أهم الاعضاء الذين كنت في صدرهم ولما انتظمت الحلقة قام فينا قائلاً :

« أيها الاخوان لقد حان الوقت أن نضرب ضربة قاضية يرن صداها في سائر ارجاء أوربا وتهلع لها قلوب الأرضين طرًّا فهل أنتم موافقون على ذلك ؟ »

فأجابه سائر الاعضاء بالاجماع دون ان يتخلف أحد و بصوتٍ واحد

— « بلى أيها الرئيس أنا امَّعةٌ معك في ما تقول »

فعاد بتروف الى الكلام وقال

« أما الآن وقد خمدت أنفاس تلك الخائنة نينا التي انتحلت هنا اسم مدام شنكوف ولم يعد من رقيب نخشى سطوته ونميمته فاني أفيدكم أن القيصر والقيصرة سيذهبان بعد اسبوعين من تاريخ هذا اليوم الى أمستردام »

ثم أخرج بعد هذا من جيبه خريطة روسيا وعليها خط يرسم سفر العائلة الامبراطورية في هذه الرحلة ملونًا باللون الأحمر ومنه يستدل أن القيصر يسافر من موسكو وريازان وتمبوف واتكارسك حتى ساراتوف ومن هناك يسافر بحرًا على ظهر باخرة تمخر نهر ڤولكا ثم عاد بعد هذا الى الكلام فقال

« فترون مما تقدم أيها الرفاق أن القطار سيمر في طريقه على خطوط ثانوية لا أهمية كبيرة لها ولذلك يقول اخواننا في بطرسبرج أن الضربة التي نصمم على اجرائها يجب أن تكون في هذه الخطة الثانوية لانها لا تكون تحت رئاسة الجواسيس والعمال كالخطوط المهمة »

فحدقتُ اذ ذاك بالرئيس وقلت له

« ما هو نوع الضربة التي نروم القيام بها ؟ »

فوضع بتروف يده على جبينه غارقًا في أبحر التفكر ثم أجاب

« هذا ما اجتمعنا لاجل الاقرار عليه في هذه الليلة ولما كان يتعذر على رفاقنا في بطرسبرج القيام بهذه المهمة العظيمة لكثرة العيون والارصاد عليهم ترتب على أحدنا هنا القيام بهذه الضربة ومتى سافر الى عاصمة الروس وجد هنالك من اخواننا من يكون له عونًا في انجاز عمله »

فقام أحد الحضور وقال

« قد تكون الوسيلة الفضلى في ذلك وضع ديناميت تحت الخطوط الحديدية كما فعلنا في موسكو »

ثم وقف آخر وأبدى رأيه مقفيًا على هذا الرأي بقوله

« أو نسف أحد الجسور (الكباري) كما فعلنا في اليزابثغراد »

فتأمل فينا بتروف وقال

« أو نسف الآلة البخارية التي تتقدم القطر مثلا ولكن كل هذا لايجدي نفعاً اذالطريقة الفضلى التي نعول عليها في بلوغ أمنيتنا هي أن تحصل الضربة في نفس القطار وما سوى ذلك عبث »

و بعد ذلك أخرج بتروف من جيبه خريطة أخرى رسم عليها شكل القطار الملكي وحجمه وسائر ما يتعلق به وأسماء الوزراء والأمراء الذين يصحبون القيصر في هذا السفر ثم عاد الى ايضاح التفاصيل الشافية التي من شأنها بيان كل خطوة في تحقيق هذه المكيدة بياناً لم تبق معه حاجة الى زيادة

بقي علينا بعد كل هذا الحكم في امر آخر خطير وهو تعيين الرجل الذي يناط به القيام بهذه الضربة الرهيبة فانتخبنا أولاً أحد أعضاء اللجنة العاملين بيد أنه بعد مداولة طويلة بهذا الخصوص أقرت الجمعية على وجوب القاء القرعة و بعد سحبها وقف الرئيس وقال

« أخبركم أن القرعة وقعت على أحدنا غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير »

فلم أتكلم ولكني تبسمت واكتفيت باحناء رأسي و بعد ذلك وقفنا للانصراف وقد تبلج الصباح

و بعد هذا ببضعة أيام بلغت مدينة بطرسبرج بعد انتصاف الليل بساعتين وذلك في شهر سبتمبر وكان الجو متلبداً بالغيوم والغيث يهطل مدراراً وأثوابي مبللة من تساقط الامطار والريح تثور عاصفة وأعضائي متيبسة من الجلوس خمسة أيام متواصلة في قطار مزدحم بالمسافرين فأخذت أسير في شوارع المدينة قاصداً منزل بعض الاصدقاء الذين سيكونون لي عوناً في انجاز مهمتي فلما بلغت جوار نزل كبير من نزل العاصمة شاهدت على ضوء مصباح الشارع شبحاً يجري على مقربة مني فتأملته فاذا هو رجل قصير القامة كبير الرأس براق المقلتين نظر اليّ نظرة حادة ثم سار في طريقه لا يلوي عل شيء

فلم يعترني من ذلك أقل خوف أو قلق لأنه كان بيدى جواز رسمي من

الحكومة ذكر فيه ان اسمي ايڤان ايڤانوڤتش أحد الرعايا الروسيين مولود في أودسا ومقيم حالياً في مونيخ واني عائد الى بطرسبرج للتفتيش على شغل يقوم بأودي وفضلاً عن كل ما تقدم فاني كنت متنكراً أشد التنكر إذ قد حلقت لحيتي وشاربيَّ وتزييت يزي غريب كنت معه في مأمن من اكتشاف حقيقة حالي حتى ان جواسيس السفارة الروسية في لندرا لو رأوني في تلك الحالة لم تداخلهم ريبة في أمري ولذلك كنت في غاية الأمن والاطمئنان

وما لبثت حتى بلغت عطفة في الشارع دخلت منها الى زقاق ضيق الى أن بلغت الشارع المقابل فوقفت أمام بيت بجانب حانوت كبير وقرعت الجرس فلم يكن سوى مثل غمض الجفن حتى فتح الباب بيدخفية فدخلت وصندوقي بيدي فوجدت نفسي في موضع ظلامه دامس تكاد تلمس ظلامه بانا ملك فوقفت حائراً لا أدري كيف أسير وماذا أفعل وبينما أنا كذلك اذا بيدٍ وضعت على كتفي وصوت رجل بجانبي يقول لي همساً

« أهلاً وسهلاً بصديقنا الذى بلغ الآن بطرسبرج تقدم واصعد السلم الى الطابق العلوي حيث أعددنا لك سائر وسائل الراحة »

فلما بلغت المنزل في الطابق العلوي وجدته رحيباً جميلاً فما جلست في غرفة الجلوس حتى عرفني الرجل بنفسه فاذا هو الموسيو كولدبنرغ أحد طلبة الطب في جامعة بطرسبرج ثم عرفني بصديق له هناك وهو صاحب مخزن الحلوى وفيما نحن كذلك اذا بسيدة هيفاء قد أقبلت علينا فقال لها كولدبنرغ « أحضري يا عزيزتي أولغا الطعام لضيفنا لأنه لا بد أن يكون جائعاً »

فأرسلت الى السيدة نظرة صرخت بعدها صرخة الدهشة والابتهاج لأنها كانت شقيقتي أولغا بعينها فلما تفرست فيَّ لحظة عرفتني وجرت اليَّ كالسهم المنطلق فطوقت عنقي بيديها اللطيفتين ولبثنا كذلك دقيقة من الزمن وكلانا يكاد يغمى عليه من شده الجذل وكانت شقيقتي لم تعلم حتى الآن ببقائي في قيد الحياة ظانة اني ميت أو لا أزال في سيبيريا لأني كنت أنتحل أسماءً مختلفة فجلسنا نقص على بعضنا حديثنا وما جرى لنا أثناء هذا الغياب الطويل فعلمت أنها سجنت في

قلعة بطرس و بولص بضع سنوات بحجة أنها من صاحبات المبادىء السياسية المضرة بحقوق الأمة والدولة ولكنها لم تحاكم قط بل لبثت هذه السنين على هذه الحال الى أن أصيبت بالحمى التيفويدية فأخلى بعد ذلك سبيلها فخرجت الى العالم وهي تحصل قوتها بشغل يديها و بعد هذا ببرهة وجيزة من الزمن تزوجت بكولدنبرغ الذي هو أيضاً من أعضاء الجمعية وادخلت نفسها بين عداد النهلست لتأخذ بثارها عما لحق بها من الاهانة والظلم أثناء هذه السنين الطوال فكانت من أجرأ الاعضاء وأشدهم إقداماً وأثبتهم جناناً حتى حيرت عقول ذوي النهى

و بينما كنت أقص عليها حكايتي واذا بالباب الخارجي قد فتح بمفتاح من الخارج ورجل صعد السلم صعوداً سريعاً ودخل علينا وهو يتنفس تنفساً سريعاً ويده على جانبه من شدة الاعياء فنظرنا اليه فاذا هو رجل متوسط القامة اسود الشعر ذو عينين براقتين ففتح باب المنزل بسرعة شديدة ثم التفت الى الحضور وقال

« حذارِ حذار فان البوليس قادم في هذه الدقيقة للتفتيش بمنزلكم »

ثم التفت نحوي وقال

« فز بنفسك واختبىء وإلاّ أصبحت في عداد الأموات »

ثم خرج من المنزل في طرفة عين

فوقفت شقيقتي أولغا منذعرة وهي تصفق بيديها نادبة سوء حظها وتقول لي

« اهرب يا غورتشا كوف. اهرب لأنهم اذا وجدوك قضوا عليك فالهرب الهرب »

ولكن كولدنبرغ التفت اليَّ بتأنّ قائلاً

« لا مجال الآن للهرب لأنك اذا نزلت من هنا ألقوا القبض عليك عند الباب فليس لك الى النجاة سوى طريقة واحدة وهي الاختباء وليس من موضع أفضل للاختباء من النافذة التي في منتصف الحائط فاصعد اليها وخذ صندوقك معك »

فنظرت الى النافذة واذا هي عالية وليس الى بلوغها من سبيل فتقدم اليَّ

كولدنبرغ وأحنى ظهره وقال « اصعد عليّ اليها »

فلم يكن سوى ثانية من الزمن حتى علوت ظهره و بيدى صندوقي فرميت به الى النافذة وصعدت اليها بعدجهدٍ عنيف ثم نزلت منها الى سطح بجانبها وأغلقت خشبها وكانت الريح عاصفة والسطح الذي وقفت عليه مائلاً حتى كدت أسقط من موضعي الى أسفل فتمسكت بخشب النافذة الى أن وجدت جدارًا صغيرًا الى جانب النافذة فجلست عليه وأحنيت برأسي الى الامام فتمكنت بذلك من مشاهدة الغرفة التي كنت جالساً فيها دون أن يراني أحد فوجدت أن شقيقتي أولغا جالسة بجانب النار و بيدها كتاب والى جانبها زوجها وصديقهما وكانت لوائح الهدو والسكينة على وجوههم وذلك تغريرًا للقادمين

و بعدوصولي الى النافذة بدقيقة واحدة دخل خمسة أنفار من ضباط البوليس وما بلغوا باب المنزل حتى نظر اليهم كولدنبرغ وهو على أشد الاندهال رافعاً حاجبيه مقطباً جبينه من شدة الاندهاش بينا أن سافاروف تقدم وقابلهم نحو الباب بكل بشاشة وأنس وهو يرحب بهم بيديه و يدعوهم للدخول والتفتيش في الموضع أما أولغا فانها أظهرت لقدومهم اندعارًا عظيماً وقابلتهم بأنفة و كبرياء من أجل هذا التطاول بدخولهم بيت قوم أبرياء من كل مكيدة أو دسيسه

فوقف الضباط وهم حيارى يجيلون أنظارهم في نواحي الغرفة فلا تقع على الشبح الذي أتوا لأجله وسط هذه الزوابع والأمطار ثم حصل على أثر ذلك مناقشة طويلة وأسئلة وأجوبة شتى لم أتمكن من سماع شيء منها لشدة الزوابع والرياح ولكني كنت أستنتج وأستدل على ذلك بما أمامي من حركات اليد وملامح الوجه وكان سافاروف أول من سئل فأجابهم بتأن وابتسام دون أن يلوح على محياه شيء من علائم الاضطراب بينا أن كولدنبرغ كان واقفاً يدخن بلفافته وظهره مسند الى الحائط ينظر اليهم نظرة الرجل البريء يضحكه مثل هذا الموقف الذي هو أدعى الى السخرية منه الى الخوف ثم أتى دور شقيقتي أولغا فخاطبتهم كملكة لحق بها الحيف توبخ أقواماً تجاسروا على اقلاق راحتها ثم رأيتها قد دفعت اليهم جوازها الذي فيه الاباحة لها بسكنى بطرسبرج فأعاده اليها الضابط الذي استلمه

بلطف وأدب وهي خطة بعض ضباط الروس في كل حال حتى ولو كنت ذاهباً بين أيديهم الى الشنق

ثم بعد هنيهة أمرهم الضابط الأكبر بينهم بتفتيش المنزل فذهبوا الى سائر جوانبه وأنحائه ولم يتركوا فيه زاوية أو خزانة أو صندوقاً دون أن يفتشوه وبينا هم كذلك خطر لي أمر ذعرت لأجله ذعراً شديداً وهو أنه قد يخطر لهم تفتيش النافذة التي كنت جالساً بجانبها فألصقت جسدي بجانب الجدار من الوراء ولم أكد أفعل ذلك حتى سمعت فتح النافذة ورأيت رأساً مطلاً منها يحدق في ذلك الظلام الدامس تحديق النسر فلبثت في موضعي لا أبدي حراكاً حتى اني قطعت التنفس ولم يكن إلاّ كلمح البصر حتى عاد فأغلقها قائلاً

« ليس من أحد ههنا »

ثم عاد الى الغرفة وعاد الضابط الى تفتيش سائر الأوراق التي هنالك فلم يعثروا على شيء يلقي أدنى شبهة في أمرهم وبعد هذا العناء الشديد قفلوا راجعين فسمعت وقع أقدامهم على السلالم الى أن بلغوا الشارع حتى لم يعد يسمع لأصواتهم شيء من الصدى فنزلت إذ ذاك من مخبئي وتعانقنا لشدة جذلنا ولخلاصنا من الوقوع في شراك هؤلاء الاقوام وبعد أن تحدثنا طويلاً ذهبنا للمنام ولكن كولدنبرغ لبث قائماً يحفر المنزل خوفاً من اعادة البوليس الكرة علينا

* * *

وبعد بلوغي بطرسبرج بثلاثة أيام كانت محطة السكة الحديدية مكتظة بأمراء المملكة وأشراف البلاد وكبراء الوزراء وأعاظم الحكام ونخبة أعيان القوم قياماً بفروض الوداع للقيصر في هذا السفر الميمون والعساكر والفرسان على جانبي الطريق لاداء التحية العسكرية ولما تحرك القطار اهتزت جوانب الفضاء من هتاف القوم الذي بلغ عنان السماء فجرى القطار الهوينا وكان مؤلفاً من خمس عربات تشغلها أعضاء العائلة القيصرية وحاشيتها الكبيرة وفي جملتها وزير المالية والداخلية والجنرال بيلي وزير الجاسوسية وغيرهم من أصحاب المنزلة السامية والمقامات السياسية وأما العربة السادسة التي كانت وراء القاطرة فهي المطبخ

الامبراطوري وتوابعه وكان في جملة خدمته أنا وصهري كولدنبرغ

أما الطريقة التي تمكنا بها من الدخول في عداد خدمة المطبخ الملكي أثناء هذا السفر فهي من جملة أسرار النهلست العظيمة الا أني اكتفي بافادتك أن خادمين من خدمة المطبخ مرضا أو تمارضا في اليوم التالي بعد وصولي الى بطرسبرج وان صديقنا سافاروف صاحب معمل الحلوى الذي هو جار كولدنبرغ أرسلنا لنكون بدلاً منهما وكان في جملة الخدمة الآخرين أحد أعضاء البوليس السري متنكرًا بزي خادم للمائدة الامبراطورية وعليه كنا على أشد الانتباه والحذر

فسار بنا القطار باسم الله مجراه يقطع البيد والقفار وينهب الأرض نهبًا في تلك السهول المترامية الأطراف بين هضاب ڤالدي ونهر الڤولكا وكانت الاحتياطات التي اتخذها القوم لوقاية القيصر في هذا السفر بالغة غاية الشدة والحذر حتى ان سائر الخطوط الحديدية كانت ملأى بالعساكر الكثيرة على جانبيها في أثناء هذه المسافات الشاسعة بين بطرسبرج وموسكو وهتاف الترحاب والدعاء باليمن والاقبال متواصل على الدوام حتى أنه لم ينقطع دقيقة قط ولما بلغنا موسكو لم يقف بنا القطار بل واصلنا المسير على خط تمبوف في أواسط روسيًا

وبعد نحو نصف الليل بساعتين ذهب أكثر الخدمة للنوم ليريحوا أجسامهم ساعة من الزمن ولم يبق منهم معنا سوى إثنين فقط فوقع لي اذ ذاك أن أحمل شيئاً من الخمر المعتق الى المائدة الامبراطورية حيث تناوله مني عند الباب البوليس السري المتنكر فتمكنت اذ ذاك من إجالة الطرف لحظة في داخل غرفة المائدة فرأيت أن القيصرة ووصائفها قد ذهبن الى غرفهن الخاصة بالمنام وان جلالة القيصر كان جالساً مع اثنين من كبار الوزراء يدخّنون ويشربون الخمرة

فعدت الى عربة المطبخ اشتغل بتنظيف بعض الآنية الذهبية واذا بكولدنبرغ قد دخل عليَّ مقفلاً الباب ورآه ووجهه شاحب كأوجه الموتى والعرق البارد يقطر من جبينه فالتفت اليه منذعرًا وقلت له « ما ورآك يا كولدنبرغ ؟ » فأحنى رأسه عليَّ وهمس في أذني قائلاً وهو يرتجف

« ان الآلة قد وُضعت وضعًا عاموديًا

— « منذ كم من الزمن ؟ »

— « لا أدري تماماً ولكني أظن منذ نحو ربع ساعة »

فلم أتوقف بعد هذا لحظةً قط بل فتحت الباب وسرت الى الجهة المركزية من العربات حيث كانت هنا لك خزانة فيها أنواع الحلوى فنظرت الى الأسفل فوجدت في قاعها قطعة من السكّر هرمية الشكل صغيرة الحجم أحضرتها معي من لندرا ولا يمكن لأحد أن يشتبه في أمرها شيئاً على الإطلاق حتى أن جانباً منها كُسر من جهة الرأس واستعملهُ الطبّاخ في تحلية الطعام وكانت لفافة الورق الزرقاء التي يُلف بها السكّر لا تزال حول الأجزاء الباقية فلم يكن هنا لك من شيءٍ يميزها عن غيرها من نوعها ولقد كنت أخذت سائر الإحتياطات في أثناء هذا السفر لإبقاء هذه القطعة مُسندة أفقيًّا فاستنتجت أن أحد الخدمة فتح الخزانة منذ بضع دقائق وإنه لما وجدها تروح ذهاباً وإياباً بارتجاج القطار وضعها وضعاً عامودياً لكي لا تتحرك ولما لمستها لكي أعيدها الى وضعها الأصلي الأفقي وجدت أن أصابعي لمست مادة غروية كثيفة فأيقنت عند ذلك أنه لا يمكني تأخير الخطب فقفلت راجعاً الى موضعي حيث كان كولدنبرغ فسألني

« ماذا نفعل الآن ؟ »

فأجبته على عجل

« ليس لنا الآن سوى سبيل واحد للخلاص »

« وما هو ؟ »

« ان نقفز من القطار طلباً للنجاة »

ثم تطلعنا من النافذة الى الخارج فرأينا أننا قد بلغنا محطة تبعد عن بوركي نحو عشرين ميلاً أي بجانب الموضع الذي عيناه لضرب الضربة القاضية فيه وكان في المطبخ الخادمان الآخران يدخنان ويشربان القهوة فقلت لكولدنبرغ بصوتٍ عالٍ لكي يتمكن الخادمان من سماعنا « تعال ننظر الى هذه المحطة فإن بجانبها بلدة أعرفها يوم كنت يافعاً » ثم خرجنا من المطبخ وفتحت باب العربة وكان القطار سائراً بسرعة شديدة والظلام حالكاً والامطار تتساقط بغزارة فقلت

لكولدنبرغ « أتبعني » ثم قفزت من جانب العربة الى الخارج فشعرت على أثر ذلك بلطمة على رأسي ثم فقدت الشعور ولم أعد أعي شيئاً ولما عاد اليَّ رشدي رأيت كولدنبرغ واقفاً فوق رأسي ونحن في أرض مملوءة بالأعشاب فتطلعت واذا بالفجر قد انبثق

فوقفت على قدميَّ أترنح كالسكران ثم التفت الى كولدنبرغ قائلاً

« ولكن ماذا جرى للقطار ؟ »

فقال لي وهو يهز كتفيه « كيف أعلم » ثم أشار بعد هذا بيديه الى رزمة من الثياب على جانب الطريق قائلاً « ان اخواننا في تمبوف لم ينسونا »

فقلت له بلهفة

« أتمكنت من أن تجدها ؟»

فقال « نعم ولقد كانت مودعة في هذا الكوخ الحقير الذي بجانبنا »

ولم يمض سوى بضع دقائق من الزمن حتى خلعنا ثيابنا وارتدينا الثياب الرثة التي وجدناها في جوار ذلك الموضع وبذلك تقمصنا في مثل غمض الجفن من خادمين لجلالة القيصر الى فلاحين فقيرين وبيدنا جوازان كنا قد استحصلنا عليهما قبلا فيهما أسماء منتحلين وانا نتجول في تلك المديرية طلباً للأشغال

وبعد الجولان من موضع الى أخر بلغنا أخيراً بلدة أركاداك حيث نزلنا ضيوفاً في بيت العمدة الذي كان في عداد جمعيتنا وكانت الإحتياطات التى اتخذتها جمعية الثورة في تمبوف لتسهيل الهرب لنا بالغة غاية الإتقان والعناية فاننا بعد أن تركنا البلدة المشار اليها بقليل وجدنا هنالك عجلة نقل تنتظرنا فركبنا فيها ونحن ننتقل من بلدة الى أخرى الى أن بلغنا مدينة على الحدود تسمى ڤريمبالن وصلنا منها الى كنغرسبرغ وسافرنا من هناك الى انكاترا وكان البوليس أثناء هذا السفر كلما بلغنا بلدة يفحص جوازنا فيجده على غاية ما يرام من اتباع الأصول المرعية الاجراء في روسيا وقد اشتريت أثناء السفر في روسيا بعد نزولنا من القطار الملكي بعض أعداد من الجرائد الروسية كالنوفوفريمياوموسكو غازيت وونسكوي بشالا فلم يكن في أحدها ذكر قط للرحلة الامبراطورية وذلك لأن

وزير الداخلية أصدر أمرًا قاطعًا يمنع فيه الجرائد عن الايماء الى الحادث الذي لم أعلم بشيء من تفاصيله الاّ بعد عودتي الى انكلترا

ولما بلغت لندرا تلقاني الرئيس بتروف بالبشاشة والترحاب ثم أطلعني على أحد أعداد جريدة التيمس الشهيرة فكان فيه تحت العنوان الآتي بيانًا موجزًا للفاجعة

« فاجعة عظيمة في روسيا : مكيدة ضد القيصر »

« حدث عند بلوغ القطار الامبراطوري محطة بوركي فاجعة أليمة اهتزت لها جوانب الامبراطورية الروسية وهلعت قلوب الوزراء والحكام لهذا الخطب الجلل وذلك أن القطار الذي يقل جلالة القيصر والقيصرة ووزراء الدولة وعظماء الأمة نسف بالديناميت نسفًا فتحطمت سائر عرباته واحترق أكثرها وقتل عشرون رجلاً وجرح عددٌ غفير من الركاب وفقد اثنان من الخدمة أما الأسرة الملكية فقد نجت من هذا الخطب وكانت نجاتها اعجوبة عظيمة فان الديناميت حطّم في وسط القطار موضع الانفجار وعطل السكة الحديدية التي أسفله وما جاورها وفتح فيها فوهة كبيرة فحفر الارض حفرًا وسحق القضبان الحديدية الكثيفة أما البيان الشافي بهذا الخصوص فلم يرد منه شيء حتى الآن وذلك لأنه قد صدرت الأوامر بعدم نشر شيء من هذا القبيل الى أن يتم التحقيق بشأنه وقد ألقى القبض على سائر من بقي من الخدمة أحياء وادارة البوليس توالي البحث بجهد لا يعرف الملل ونشاط لا يدركه خمول ومتى انجلت الحقيقة أتينا على تفاصيلها الضافية الذيول »

ولا بد من الايماء هنا الى أن هذه المكيدة كانت أعظم المكائد التي قام بها النهلست وأدقها احكامًا وأوفرها اتقانًا وأغمضها أسرارًا فانه كان وسط ذلك الهرم الصغير من السكر آلة محكمة الوضع والاتقان قام على عملها أبرع العمال وهي مؤلفة من ساعة أميركانية صغيرة يتصل بها أنبوبان من الزجاج يتضمنان سائلين من أشد السوائل المعروفة تفرقعًا وأهلكها انفجارًا فاذا ما أديرت الساعة بالزنبرك ووضع الهرم وضعًا أفقيًا اقتضى لاتمام العمل وانكسار الأنبوبين وتلاقي

السياليين المتفرقعين نحوًا من أربع وعشرين ساعة أما اذا وُضع الهرم عموديًا دارت الساعة وانكسر الانبوبان واتحد السيالان وحصل التفرقع الهائل في نحو ربع ساعة فقط وقد كان الاختراع على هذه الصورة حتى اني اذا لم أتمكن من دخول القطار الامبراطوري في جملة الخدمة أدخلنا الآلة مهربة مع لوازم الطعام وأنواع الحلوى موضوعة وضعًا عاموديًا فتنفجر بعد ذلك بربع ساعة أما خلاص الأسرة الامبراطورية وعدم ذهابها ضحية هذا التفرقع الهائل فيعلل عنه بهذا الانفجار العامودي الذي ذهبت فيه قوة الديناميت بين الجو والأرض أما لو بقيت الآلة على وضعها الأصلي وانفجرت انفجارًا أفقيًا لم يسلم من سائر الذين كانوا في ذلك القطار شخص واحد ولأمست سائر العربات هباء منثورًا

و بعد أن انتهيت من مطالعة المقالة تقدم اليَّ بتروف وعانقني طويلاً ثم قال « أهنيء صديقي غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير لانتخابه رئيسًا عامًا وجنرالاً للنهلست في سائر أنحاء أوربا »

فوقفت مذعرًا وقلت له «ماذا تقول؟» فدفع اليَّ قرارًا رسميًا يعلن أن اللجنة العاملة قد انتخبتني في اجتماعها الأخير زعيم النهلست العام وانها ولجت بتروف بالذهاب الى روسيا لقضاء مصالح خاصة تتعلق بالجمعية

الفصل الثاني عشر

« وما ظالم الاّ سيبلى بأظلم »

بينما كنت تلك الليلة جالسًا مع بتروف في نادي الثورة أستريح من مشاق ذلك السفر الذي دوت لنتائجه أنحاء أوروبا دويًا عظيمًا هممت بالانصراف فأمسكني بتروف وقال ستبقى هذه الليلة معنا للعشاء وخصوصًا لأننا في انتظار أخ صدوق ثم دفع اليَّ كتابًا محررًا بالأحرف النهلستية التي لا يتأتى لأحد حلها سوانا فاذا فيه ما يأتي

« ان مزراكي أو بندورف الذي سيصل الى لندرا مساء الخميس القادم هو أحد الاعضاء المهمين في لجنة الثورة في موسكو ولقد سجن مرتين متواليتين احداهما في شلسبرغ والأخرى في سجن القديسين بطرس و بولص وأتيح له الآن الهرب ولقد بعثنا به اليكم لأننا على ثقة أنه سيكون من الاعوان الامناء الذين لخدماتهم شأن كبير وذلك لما هو عليه من الجرأة والاقدام ومعرفة كثير من اللغات الأوربية التي تسهل عليه بلوغ المراد و بما انه ذو ثروة كبيرة فهو ليس في حاجة الى شيء من الدراهم أو تقديم اسعاف له من اللجنة العاملة ومتى بلغ لندرا يسلمكم كتاباً منا لتعريفه بكم

رئيس جمعية الثورة في موسكو

مكس هونفرسكي

فأرجعت الرقيم الى بتروف وقد أحنيت رأسي على كرسي مريح ولبثت كذلك أدخن لفافتي وأنا أتأمل في الوقائع التي حدثت على يدي منذ عهد قريب واذا ببتروف وغيره من أعضاء اللجنة يترحبون بالزائر الجديد وهم يتكلمون الروسية ثم دخلوا جميعاً وعرفوني به فاذا هو شاب ربعة القامة يناهز الثلثين سنة من العمر ذو عينين صغيرتين براقتين فنزع عنه وشاحه وجلس بجانب النار ثم أخرج من جيبه رقيماً وسلمه لبتروف

ولما جلسنا على المائدة كنت بجانبه فأخذ يحدثنا عن حركة الثورة في روسيا وتنبه خواطر رجال الأمة الى المطالبة بحقوق الشعب وكان في انتقاده الحكومة شديد اللهجة حاد اللسان جري الجنان وكان كلامه فصيحاً وحديثه يأخذ بمجامع القلوب والالباب و بعد أن انتهى من كل ذلك سألته أن يقص علينا شيئاً من أمره وما جرى له فقال ان المصائب التي حلت عليه لو وقعت على جبل لتصدّع ثم نظر الى بتروف وقال

« أتعرف سجن شلسبرغ المظلم وغرفه الرطبة التي هي تحت الارض ؟ »

فتأوه بتروف قائلاً

« كيف أنسى ذلك الجحيم الأرضي وقد سجنت فيه مع امرأتي وذقت مرارته وشدّة بلواه ولقد أودت هذه الحال بامرأتي العزيزة الى الجنون

وها هي الآن في مستشفى المجانين »

فالتفت أو بندورف الينا قائلاً

« ان الجنون هو نصيب أكثر أولئك التعساء الذين قضى عليهم الظلم والاستبداد بأن يدخلوا ذلك المكان الهائل ولقد كاد يعتريني الجنون أثناء سجني فيه ولكني كنت على الدوام أتمشى في غرفة السجن أنظم الشعر و بقيت على هذا المنوال أسابيع وأشهراً ولولا ذلك لكان فيّ مسٌّ من الجنون ولبثت صابراً على مر البلوى الى أن قيض الله لي الهرب وكيفية ذلك أن فريقاً كبيراً من المجرمين القتلة أرسلوا الى هناك من بطرسبرج حتى غصت بهم غرف السجون فنقلني السجان من موضعي الى غرفة من غرف البرج الكبير هناك وهي غرفة بسيطة لها نافذة تطل على الجسر (الكبري) وهي عالية ولكن في أسفل النافذة أنبوباً كبيراً للماء ينحني على سطح مائل لا يتعذر على الجرىء إستعماله سبيلاً للهرب ولما كانت هذه الفرصة هي الوحيدة التي تمكنت بها من الهرب عزمت على المخاطرة بحياتي لأن الموت أفضل من ذلك السجن الرهيب ولذلك اصطنعت حبلاً من ثيابي وتدليت على الجسر الذي يصل الى السجن بالضفة الأخرى من النهر و بينا كنت أهني نفسي على هذ الحظ السعيد الذي كان لي رآني أحد الحراس وصاح برفاقه لاتباعي فجريت في الحرج المجاور كالسهم اذا انطلق فجري ورآءي بضعة نفر من الحراس ولكنهم لم يتمكنوا من اتباعي إذ أني بعد بضع دقائق اختفيت بين الأشجار الغضة وأصبحت في مأمن منهم وما لبثت في مخبأي بضع دقائق حتى رأيت نحو عشرين فارساً من حرس الفرسان ينهبون الطريق نهباً فلما تواروا عن الأبصار خرجت من مخبأي وقصدت جانب نهر النيقا فرأيت على الشاطىء المقابل ما ظننته سواري مراكب وكان بجانبي عدد غفير من البحارة فعرضت روبلين على أحدهم لكي يقطع بي النهر الى الضفة الأخرى ولما سألني الرجل الباعث على ذلك أخبرته أنَّ هنالك مركباً أحب ركوبه فنظر إليَّ الرجل شزراً وسألني من أنا فأخبرته أني أحد الفعلة فحدق بي كمن اشتبه بأمري فخطر لي أن أجري ركضاً تخلصاً من هؤلاء الأقوام ولكني رأيت بعد النظر أن

ذلك من المحال لأن عدد البحارة غفير وقد أصبحوا محيطين بي من كل جانب فاضطررت أخيراً الى الاقرار بحقيقة أمري فثارت في قلبه عاطفة الحنان عليّ وقطع بي النهر ولما بلغت الضفة الأخرى نظر اليّ قائلاً « لا تقل لغيري بعد الآن انك تقصد مركباً في هذه الضفة لأن ذلك كان منذ نحو عشرين سنة أما الآن فلا يوجد فيها مركب واحد أبداً » فصرفت ذلك النهار وأنا تائه بين الادغال ولما أمسى المساء بلغ التعب والجوع مني مبلغاً عظيماً فأخذت أسير طلباً للوصول الى قرية من القرى فلما وصلت اليها قرعت أبواب القوم فلم يكن منهم من يقبلني ضيفاً في بيته وأخيراً ذهبت الى بيت عمدة البلدة ولما فتح لي الباب أخبرته اني أحد طلبة العلم في بطرسبرج حضرنا للنزهة ثم ان أصحابي عادوا وتركوني بعد أن غلب الكرى أجفاني من وفرة القيود كا التي تعاطيناها فأخذني الرجل اليه وفي صباح اليوم التالي استأجرت قارباً و بلغت بطرسبرج فنزلت عند بعض الأصدقاء الذين آووني ولبثت هناك آمناً و بعد أن فتش عليّ البوليس جهده على غير طائل سافرت من بطرسبرج كأحد العمال الى أن بلغت لندرا »

ولما عدت الى منزلي تلك الليلة طلبت من أو بندورف أن ينزل ضيفاً عندي فقبل ذلك شاكراً فكنا نجول سوية ونقوم ببعض الخدامات التي تطلبها جمعيتنا سوية فوجدته شديد العزم رابط الجأش كثير الحزم والاقدام فتمكنت بيننا عرى الصداقة والوداد وكنا نذهب الى نادي الحرية سوية حيث نلتقي بجمهور من أعيان الانكليز وجلة النهلست

وحدث ذات يوم بينما كنت جالساً وحدي في منزلي ان أحد سعاة البريد قد دخل عليّ ودفع اليّ كتباً عديدة باسمي واسم صديقي أو بندورف و بينما كنت أتأمل فيها وجدت أحدها باسم أو بندورف معنوناً الى السفارة الروسية وعليه طابع حكومة روسيا فعلمت ان الساعي قد أحضره الى منزلي خطأً فأقفلت الباب وفضضت الغلاف فاذا فيه ما يأتي

« عزيزي أو بندورف

« إن التقارير التي بعثت بها الينا بعد بلوغك لندرا أتت مصداقاً لما تكهنا

بخصوصه هنا وهو أن الفاجعة التي حصلت لجلالة القيصر انما هي مكيدة نهلست لندرا قام باخراجها من حيز الخيال الى عالم الحقيقة ذلك المارق غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير الذي سينال يوماً جزاء ما جنت يداه ولقد رفعنا خلاصة تقاريرك الى وزير الداخلية ولا يمر زمن طويل حتى يصدر الأمر بتعيينك رئيساً للبوليس السري في لندرا ومتى أنجزت مهمتك هناك تعود الى بطرسبرج مستشارا لوزارة الداخلية ولقد عقدت النية على التوجه الى باريز بعد أسبوع من الزمن فعليك بارسال سائر التقارير باسمي الى نزل الامراء في شارع اللوفر وسيكون قدومي الى عاصمة الفرنسيس صاعقة تنقض على أعدائنا من حيث لا يدرون »

الجنرال ملا كوف

هذا هو عدوي الألد ملا كوف الذي أوقعني وشقيقتي تحت أفاعي السياط فأدمى الجلد وكان باعثاً على ارسالي الى أقاصي سيبيريا ذلك المنفي الذي لا تزال أهواله مطبوعة على مخيلتي كأنها طبعت بنار — هو هو نفسه تعين رئيساً لبوليس بطرسبرج والآن قادم ليقع في الشراك التي نصبها لنا وهذا أو بندورف الذي ترحبنا به ترحب الاخ بأخيه والصديق الودود بصديقه الودود لم يحضر الا ليكون حية تسعى بين أعضائنا ورقيباً على حركاتنا وجاسوساً على أعمالنا فذهبت توًّا الى نادي الثورة ووزعت رقاع الدعوة على أعضاء اللجنة العاملة فانعقدت الجمعية تلك الليلة وحكمت على اوبندورف بالاعدام فلما عدت في المساء الى منزلي وجدت رقيما من او بندورف يقول فيه أن قد عرضت له بواعث تضطره الى تأجيل حضوره اليّ نحواً من أسبوعين

وبعد أسبوع من الزمن توجهت الى باريس فوجدت لجنة الثورة هنالك في اضطراب شديد فان ملا كوف قد بلغ المدينة مساء اليوم الماضي وقد علمت جواسيسنا هناك أن الموسيو لوران رئيس بوليس المدينة زاره في نزل الامراء ولبث معه برهة طويلة في حديث ذي شجون الغرض منه ايجاد وسائل سرية يمكن أن يبنى عليها حكم في تسليم بعض أعضاء الثورة هناك الى الحكومة الروسية واعادتهم الى تلك البلاد ومعنى ذلك الحكم على هؤلاء الاقوام الابرياء بالنفي

المؤبد والاشغال الشاقة في مناجم سيبيريا

ولما نزل ملاكوف في نزل الامراء ادعى أنه تاجر حضر لترويح النفس من مشاق الاعمال التجارية ولم يتظاهر بشيء من البذخ والاسراف بل كان عنده خادم واحد فقط يقوم على خدمته ويحترمه كثيرًا أحضره معه من روسيا وكان ملاكوف يتعهد مواضع اللهو ومتنزهات المدينة ويتغيب عن المنزل أيامًا بطولها دون أن يعرف له قرار ومتى عاد الى النزل حضر اليه جماعة من الأقوام بثياب رثة واطمار بالية ينثر الدنانير بين أيديهم نثرًا اذ كانوا يدعون أنهم أقوام ناخ عليهم الدهر بكلكله وعضهم القهر بنابه وأنهم أتوا يستغيثون بهذا الجواد الكريم والمحسن العظيم وما هم سوى لفيفه وآلات مكائده

وبينما كنت سائرًا ذات يوم في شوارع المدينة شاهدت الجنرال ملاكوف راكبًا عجلة وذاهبًا للتنزه الى حرج بولونيا فخطر لي خاطر غريب فسددت خطواتي الى نزل الامراء وقرعت باب منزل الجنرال ملاكوف واذا بخادمه قد فتح الباب وهو شاب نحيل الجسم أصفر اللون فقال لي ان سيده قد خرج ولا يعلم متى يعود فأخبرته اني قد أتيت لغرض هام ولا بد لي من الانتظار الى أن يعود ثم وضعت في يد الخادم جنيهًا فمر بي من القاعة وأدخلني غرفة فسيحة كبيرة تطل على الشارع وكانت تلك الغرفة للجلوس والكتابة معًا فلما انصرف الخادم وأغلق الباب وراءه تلفت فاذا بجانبي طاولة كبيرة عليها كتب شتى ففتحت واحدًا منها واذا هو تقرير مطول عن أعضاء لجنة الثورة في باريز من أحد جواسيس الجنرال وذلك على رقّ من الورق مطبوعة فيه الاسئلة الآتية

« يجب أن يملأ فراغ الجواب على هذه الاسئلة مرة في الاسبوع »

« (١) ما هو اسم الشخص الذي هو تحت المراقبة واسم أبيه وعائلته سواء كان رجلا أو امرأة ؟

« (٢) أين يسكن وما اسم الحي والشارع والمنزل؟

« (٣) أين التقيت به أولا وما هي الظروف التي رأيته فيها وهل رآك هو نفسه؟

« (٤) منذ كم من الزمن سكن في منزله الحالي ومن أين أتى وماذا تعلم عن

موضع سكناه السابق؟

« (٥) هل يسكن منفرداً أو يساكنه أحد آخر واذا كان الامر كذلك فمن يساكنه وماذا تعلم من أمر هذا الرفيق ؟

« (٦) هل في خدمته أحد واذا كان الامر كذلك فما اسمه أو أسماؤهم اذا كانوا أكثر من واحد واذا لم يكن له خادم فمن يرتب غرفته أو غرفه وما هي الاشياء الموجودة فيها ومن تغسل ثيابه وما اسمها وموضع سكنها ؟

« (٧) هل يتناول طعامه في منزله أو في مطعم وأذا كان الامر كذلك فما هو ذلك المطعم؟

« (٨) هل يتردد على مكتبةٍ ما وما هي الكتب التي اقترضها أثناء الاسبوع؟

« (٩) في أية ساعة يترك غرفته وفي أية ساعة يعود اليها؟

« (١٠) كيف يصرف وقته في منزله؟

« (١١) هل هو اعزب أو متزوج واذا كان الامر كذلك فهل له اولاد وكم عددهم؟

« (١٢) هل هو مغرم بامرأة واذا كان الامر كذلك فمن هي وما هو منزلها وأين يجتمعان؟

« (١٣) من يزوره أثناء الاسبوع وفي أي وقت من النهار سواء كان قبل الظهر أو بعده؟

« (١٥) هل صرف أحد الليل عنده سواء كان رجلا أو امرأة واذا كان كذلك فمن هو هذا الشخص أو الاشخاص وما موضع سكناهم؟

« (١٦) هل ترده رسائل أو جرائد من روسيا؟

« (١٧) أية ساعة أشد موافقة لالقاء القبض عليه؟»

وكانت الأجوبة على هذه الأسئلة غاية في الدقة والاسهاب فلم يترك الكاتب تفصيلاً الاّ أتى على بيانه ولا افادة الاّ أبان دقائقها أما توقيع التقرير الذي كان بيدي فكان بامضاء أحد الرقباء وعليه توقيع الجنرال ملاكوف ايماءً الى انه طالعه ووافق على صحته

وبينما كنت منهمكاً بمطالعة هذا التقرير اذا بالباب قد انفتح ودخل

عليّ الخادم فذعرتُ من ذلك وأعدت الكتاب الى موضعه فتقدم اليّ الخادم باحترام وقال

« أرجوك يا مولاي غوتشا كوف سرجيوس فلاديمير أن تترك الغرفة قبل عودة سيدي »

فشعرت كأن صاعقة قد انقضت على رأسي وتفرست بالرجل قائلاً

« أتعرفني يا رجل؟»

فلم يجب على سؤالي بالكلام ولكنه أحنى رأسه وأدى الاشارة النهلستية فزادني ذهولاً ونظرت الى الرجل سائلاً

« ما اسمك وكيف تأتى لك الوصول الى خدمة رئيس الجواسيس ؟ »

« إسمي جورج كراكوفتش وقد انقضت الآن سنة من الزمن وأنا في خدمة الجنرال »

« هل تعلم مضمون الرسائل التي ترد على الجنرال من جواسيسه ؟ »

« أنسخ كل تقرير على حدته وأرسله الى لجنة الثورة في بطرسبرج »

« رأيت الآن بين أسماء الذين وقعت عليهم الشبهة من أعضائنا إسم نبتوفسكي أحد اخواننا فهلاّ بعثت اليه تحذيرا ؟ »

« أجل يامولاي وقد باع الآن معمل التبغ الذي يملكه وهو مزمع على الرحيل الى لندرا »

« ولكن ما ذا جرى بابنته نينتا ؟ »

وبينما همّ بالاجابة واذا بصوت وقع أقدام فتقدم اليّ الخادم قائلاً

« أرجوك يا مولاى أن تعجل فهو ذا الجنرال قد أتى - العجل — العجل »

ثم تقدم نحوي وجذبني بيدي الى غرفة مجاورة وأقفل الباب فتمكنت بذلك من الوصول الي السلم والنزول الى الشارع دون أن ألتقي بالجنرال

ولما أرخى الليل سدوله جلست في غرفتي أتأمل بحوادث ذلك النهار وانه لا بد من التعجيل في رحيل نبتوفسكي واذا بأحد الاخوان من لجنة باريز قد قرع الباب شديداً ثم دخل على عجل قائلاً

« ان بوليس باريز قد ألقى القبض على نبتوفسكي وسائر أوراقه وأشيائه وفي جملتها قنابل ديناميت غير كاملة العدة »

فتطلعت الى الرجل منذهلاً وقلت

« ولكن نبتوفسكي قد حُذر وكان على أهبة الرحيل من باريز »

« ذلك صحيح ولكنه الآن في قبضة أيديهم »

فتفرست فيه وسألته نفس السؤال الذي لم يجبني عنه خادم ملا كوف قائلاً

« ولكن ما ذا جرى بابنته نينتا ؟ »

« خرجت من المنزل عصر أمس وحتى الآن لم تعد »

فتعجبت من تمكن بوليس باريز من العثور على قنابل ديناميتية في منزل نبتوفسكي بعد أن وردته رسائل التحذير واستنتجت بعد اعمال الروية أن جواسيس السفارة قد وضعتها هناك عمداً بطرق سرية كما جرى مثل ذلك قبلاً فلبست ثيابي وتوجهت مع صديقي الى موضع اجتماع الأعضاء لنتداول في أفضل الوسائل لانقاذ نبتوفسكي

وفي اليوم التالي حضرت محاكمة نبتوفسكي فوجدت المحكمة غاصة بالجماهير وبينهم شهود من جواسيس السفارة الذين شهدوا بمعاينة القنابل في منزل نبتوفسكي وكان بين الجمهور الجنرال ملا كوف لابساً ثياباً بسيطة وهو يراقب سير المحاكمة باسماً عن وجه يفتر سروراً بفوزه ثم أن بعضاً من رجال السفارة ذكر أن نبتوفسكي في جملة الهاربين من روسيا لجرائم كبيرة وان الحكومة الروسية تطلب تسليمه اليها بعد الذي بدا منه من صنع المفرقعات والآلات المهلكة فأيقنت عندئذٍ أن لا وسيلة لخلاص الرجل وأن نصيبه سوف يكون النفي الى مناجم سيبيريا

وبعد انتهاء المحاكمة توجهت مع صديق الى احدى القهاوي حيث اشترينا بعض أعداد من الجرائد فرأيت في أحداها وهي الايكودي پاري ما يأتي

« عثر الليلة الفائتة أحد البحارة المسمى ليبرنيه وهو يصطاد سمكاً على جثة فتاة التقطتها سنارته في نهر السين ولم يوجد في ثياب الفتاة ما يُعلم منه حقيقة أمرها وقد بُعث بالجثة الى غرفة الموتى الى أن يجري بشأنها التحري اللازم »

فلم نبطئ بعد هذا ان توجهنا الى الموضع المذكور الذي هو وراء نوتردام فعلمنا من النظرة الأولى ان الجثة انما هي جثة نينتا السيئة الطالع

ولما وقفت على هذه الحقيقة توجهت توًّا الى منزل الجنرال ملاكوف فسلمني الخادم ورقة أسرعت الى وضعها في جيبي وكانت تقريرًا مفصلاً بخصوص سائر حركات ملاكوف أثناء الأربع والعشرين الساعة الفائتة

ثم ذهبت بعد ذلك الى نادي الثورة في باريز وعقدت اجتماعاً معجَّلاً أتيت فيه على بيان المهمة التي لأجلها أتى ملاكوف باريز ووضعت أمامهم الأدلة والأوراق التي تثبت الجنايات التي قام بها الرجل فبعد مداولة طويلة حكم عليه بالاعدام وألقينا قرعة كالعادة

وكان بين الأعضاء المجتمعين جورج كراكوفتش خادم الجنرال ملاكوف فمشينا سوية بعد ارفضاض الجلسة ولما صرنا في خلوة نظر اليّ قائلاً « لقد جَدّ عليّ من المشاغل ما يضطرني الى ترك خدمة الجنرال في أقرب آن » فتطلعت اليه قائلاً

« اذا كان لا بد لك من ذلك أفلا يمكن أن أحل محلك ؟ »

« بلى ويمكنك إذ ذاك من متابعة رقبه »

« وعلاوةً على ما تقدم فان بيدي شهادات تدل على حسن سلوكي وخدماتي السابقة من أسيادي السالفين »

فتأملني ضاحكاً وأجاب

« ممَّن ؟ »

« من البرنس أوختومسكي »

فتبسم وتابعنا سيرنا ولم يمر بعد هذا بضعة أيام حتى تعينت خادماً للجنرال ملاكوف تمكنت أثناء ذلك من نسخ سائر التقارير التي كانت ترد عليه من عماله السريين رجالاً وسيدات

وبعد نحو ثلاثة أسابيع عثرت بين أعداد الجرائد التي كنت اشتريتها من الباعة على تلغراف منشور في جريدة التان الشهيرة لمكاتبها في بطرسبرج يفيد أن نبتوفسكي الذي ألقى القبض عليه في باريز قد حوكم أمام مجلس عسكري وثبتت

عليه تهمة محاولته اغتيال القيصر فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة في سيبيريا

ولم أكد أنجز مطالعة هذا التلغراف حتى قرع جرس الباب فوجدت هنالك رجلاً ربعة القامة يطلب مواجهة الجنرال و بيده جريدة وعليه ثياب رثة فدخل الى غرفة الجنرال وأغلق الباب وراءه فبقيت جالساً ألى جانب الباب أنصت الى ما يكون من أمرهما واذا بملا كوف يقول للزائر

« لقد ثبت عليه تهمة محاوله الاغتيال ومتى علم جلالة القيصر ذلك انهالت علينا انعاماته المتوالية انهيال الغيث على ما أبديناه من الدهاء »

فأجابه الزائر قائلاً

« ولكنه دهاء لو عُلمت سائر تفاصيله انقلبت علينا وبالاً »

« ماذا يهمك أو يهمني لو خسر العالم نهلستياً من هؤلاء الطغام »

« قد يكون ذلك صحيحاً ولكن أنت تعلم يا مولاي الجنرال اننا لم نتمكن من القاء القبض على هذا الرجل في باريز وتسليمه الى الحكومة الروسية الاّ بتضحية حياة ابنته نينتا »

« ان نينتا انتحرت انتحاراً وعلاوة على ذلك فانها دُفنت دون أن يعرف أحد جثتها »

فأجابه الزائر الذى لم يكن سوى أحد جواسيسه

« ان نينتا لم تنتحر ولكنها قُتلت قتلاً »

« كيف تعلم ذلك ؟ »

« ان جواسيس الحكومة الروسية حاضرة في كل مكان وكان أحدهم حاضراً لما رُميت الى النهر وذلك الجاسوس الذي رأى ذلك هو خادمكم المطيع »

فأجابه الجنرال ملا كوف على عجل

« اخفض صوتك لأن خادمي في الغرفة الأخرى فقد يتمكن من سماعك فارع السمع لما أقول لك تجد اني كنت في عملي مصيباً فان لهذه الفتاة حبيباً يسمى مرلن كان من جملة موظفي السفارة الفرنساوية في بطرسبرج ولما كان الرجل يقدر أن يقوم لنا بخدمات مهمة تظاهرت بصداقته غير أني اكتشفت بعد

وجيز من الزمن ان الرجل يميل الى آراء النهلستيين وانه أحد أصدقاء نبتوفسكي الأقدمين ولقد تمكنت نينتا ابنته من معرفة شيء من أمري وان لي علاقة بجواسيس الحكومة الروسية فأغوت مرلن على سرقة بعض الأوراق التي تتعلق بأبيها فانه زارني مرة فتركته وحده في غرفتي بضع دقائق من الزمن تمكن أثنائها من احراز كتاب على غاية من الأهمية فانه لو اطلع عليه القوم في فرنسا كان جزآؤنا الطرد من أرضها لأن في ذلك الكتاب تفاصيل المكيدة والشبكة التي ألقيناها للرجل بوضعنا قنابل ديناميتية في منزله وأنت تعلم ان الوزارة الداخلية في بطرسبرج قد ضاق صدرها من الابطاء والتسويف فكان لا بد لنا إذ ذاك من ايجاد رجل يصح أن تلقي على عاتقه مسئولية ما »

« اذاً ما ترمي اليه هو ايجاد رجل نهلستي يُذنَّب سواء كان مجرماً أم لا »

« لقد أصبتَ كبد الحقيقة ثم أفيدك اني أخذت في رقب مرلن والفتاة حتى تأكدت أن الشاب قد دفع الكتاب اليها دون أن يعرف هو نفسه ما يتضمنه فكان لا بد لنا إذ ذاك من التوصل الى طريقة نتمكن بها من لجم لسان تلك الفتاة والطريقة الوحيدة الفعالة هي الموت وعليه فاني راقبتهما حتى اذا ما كانا على مقربة من نهر السين . . . »

« لا لزوم لسرد ما تبقى من الحديث لأني تبعتك الى هناك ظاناً أنك قد تكون في حاجة الى مساعد فرأيتك تدنو من الفتاة بعد أن افترقت عن حبيبها ثم انتشلت الكتاب من جيبها ورميتَ بها الى الماء »

« لو لم أفعل ذلك كانت النتيجة ان الفتاة تذهب بذلك الكتاب الى أحد أعضاء الاشتراكيين في مجلس السناتو في فرنسا فيأخذ ذلك الحزب بناصرها ويطرحون في مجلس الأمة أسئلة بهذا الخصوص عاقبتها علينا الويل والحرَب والخذلان فينكشف أمرنا ويسقط احترام مصلحة البوليس السري الروسي في عيون الأمة الفرنساوية وتسلقنا جرائدها بألسنة حداد ويُحكم علينا بالطرد والخذلان »

فأجابه الزائر « أما الآن فلا خوف علينا من ذلك ولا نحن نحزن بل ان جلالة القيصر سيكون لنا من الشاكرين ويغدق احسانه علينا اغداق الكريم

الجوّاد فتمتلىء جيوبنا بالدنانير وتتألق صدورنا بالأوسمة وإني مقر لك يا مولاي بأنك أدهى دهاة السياسة وأعدك أن لا نعود الى ذكر هذا الحديث مرة أخرى»

وعند ذلك سمعت صوت أقدام في الغرفة فتراجعت الى الغرفة المحاذية فرأيت الباب قد فُتح والزائر خارجاً منه الى أن توارى عن الأبصار في أسفل الشارع

وبعد ساعة من الزمن دخلت على الجنرال ملاكوف فوجدته قد استلقى على مقعد في زاوية الغرفة وأوراقه مبعثرة على الطاولة وبينها مسدس

فلما رآني تفرس فيَّ وقال

« ألأمرٍ حضرت اليّ »

فأجبته « لأمرٍ هامٍّ جدًّا »

« وما هو ؟ »

« لأستقيل من خدمة مولاي »

فنظر اليَّ ملاكوف نظرة كلها سخرية وازدراء وأجاب

« أتسمي ذلك أمرًا هامًّا ؟ فأنت من هذه الدقيقة في حلٍّ من خدمتي فأذهب وغدًا أحضر من يقوم مقامك »

« أشكرك اذًا باسم مولاي الجديد »

« من هو هذا المولى الجديد الذي أشغاله السياسية تستدعي كل هذا الالحاح »

« خلِّ عنك المزاح يامولاي فان الرجل من أصحاب السياسة واسمه غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير »

فجلس ملاكوف على المقعد كأنه وُخز بحربة وقال لي باهفة

« هل غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير في باريز ؟ »

« نعم يامولاي »

« ومتى حضر اليها ؟ »

« منذ نحو أسبوعين من الزمن »

« هل لك معرفة سابقة به ؟ »

« نعم فقد كنت خادماً له برهة طويلة في لندرا »

« هل تعرف شيئاً من أمره ؟ »

« أعرف عنه ما لا يعرفه رجل سواي »

« أكان موخراً في روسيا ؟ »

« لم يذهب فقط الى روسيا ولكنه ذهب حاملاً معه آلة الهلاك الديناميتية لنسف القطار الملكي »

« فنظر إليَّ مندهشاً وكله عيون ومسامع وقال

« أتعلم شيئاً عن ذلك ؟ »

« أخبرتك يا مولاي أني أعرف عن هذا الرجل ما لا يعرفه سواي فانه من أسرة فلا ديمير الشهيرة بالثروة فان نصف ينابيع البترول في روسيا ملكهم ولكن أبو الرجل كان من عصابة النيهيلست فحلَّ عليه غضب القيصر ونفاه الى سيبيريا وصادر سائر أملاكه ولما عاد إبنه وجد نفسه فقيراً لا يملك شروى نقير فأخذ يتجول مفتشاً على أمه وأخته إلى أن حظي أخيراً بهما الواحدة ميتة من الجوع على حصير بال في غرفة مظلمة رطبة والأخرى موثقة الى آلة خشبية ومعراة حتى وسطها والسياط تنهال عليها انهيال الغيث حتى أدمت جلدها وذلك لان ميكروب النيهيلست انتقل اليها من والدها فلما شاهدها شقيقها على هذه الحال ود تخليصها فأمر الحاكم بجلده وأخيراً نفي الى سيبيريا ثم هرب من هنالك الى لندرا حيث دخل في عداد النيهيلست وقام بأعمال تقشعر لها الأبدان »

« سمعت شيئاً من ذلك ولكن الأمر الذي يهمني الوقوف عليه هو معرفة دخائل تلك الدسيسة التي تم بها نسف القطار الملكي الذي تشير اليه »

« ذلك من أسهل الأمور فإن النيهيلست لما أجمعوا على ذلك أقروا على اصطناع آلة جهنمية قام بصنعها نفس النيهيلستي الذي اخترع تلك الساعة التي دكت قسماً من قصر الشتاء الأمبراطوري ولكن هذه الآلة الأخيرة كانت أغرب صنعاً لانها كانت عبارة عن قطعة هرمية الشكل من السكر تتضمن السوائل القابلة التفرقع على شكل ساعة أمركانية اذا وُضعت عمودياً تفرقعت في ربع ساعة أو أفقية ففي أربع وعشرين ساعة »

فهز ملا كوف رأسه عدة مرات و بدت على وجهه دلائل الجد والأهتمام وأخرج من جيبه كتاباً وقلما وأخذ يعلق هنالك من الملاحظات ما عنَّ له

« هل تعلم كيف دخل روسيا ؟ »

« دخلها تحت اسم منتحل وذلك بمساعدة سكرتير الداخلية الذي هو أحد أعضاء النهلست السريين »

فصاح الجنرال ملا كوف بأعلى صوته

« وهل اسبنسكي سكرتير الداخلية من هؤلاء الاقوام ؟ »

« ليس منهم فقط ولكنه أشدهم دهاء وأوفرهم مكراً وهو الذي سهل له سبيل الدخول لان يكون هو وصهره كولدنبرغ بين خدمة القيصر في ذلك السفر »

فضحك ملا كوف قائلاً

« ها ها ! الآن ينجلي لي ذلك اللغز العظيم — الآن تنفتح أبواب المجد أمامي — تكلم تكلم ولا توجز »

« ولما بلغ بطرسبرج في ذلك الليل المدلهم تحت عصف الزوابع وقصف الصواعق شاهده أحد الجواسيس ذاهباً الى محل صهره كولدنبرغ وفيما كان البوليس ذاهباً لالقاء القبض عليه ركض أحد جواسيس النهلست وهو في الظاهر أحد أعضاء جواسيس بطرسبرج واسمه ديمترا كي فحذره وخرج لا يلوي على شيء وقبل أن بلغ البوليس بيت كولدنبرغ كان غورنشا كوف فلاديمير قد خرج من النافذة التي في أعلى الحائط و بلغ السطح الذي هو بأسفله وهذا هو السبب الذي لأجله لم يعثر البوليس له على أثر »

فضرب الجنرال رأسه بيده عدة مرات وهو يحرق الأرَّم من الغيظ و يقول

« أديمترا كي أيضاً نهلستي ؟ ذلك الرجل الذي كنت أظن أنه . . . » ثم استدرك فقال « ذلك الرجل الذي كان رئيس الجواسيس يظنه آمن عماله اهو أيضاً نهلستي ؟

« هو نفسه يامولاي الذي حذر غورتشا كوف ولكن هذا تمكن من الانخراط في سلك خدمة القيصر مع نسيبه كولدنبرغ ولما أصبحت الآلة على وشك الانفجار تركا القطار يحملان جوازاً مزوراً ثم عاد الى انكلترا وهما الخادمان

اللذان فُقدا من القطار عند حادثة الانفجار »

فأبرقت أسرّة الرجل وهو يدوّن ما رام من هذا الحديث ثم نظر اليّ قائلا

« وماذا يبغي غورتشا كوف فلاديمير من الحضور الى باريز ؟ »

« الغرض من ذلك احباط مساعي رجل مهم من الروس قدم باريز منذ عدة أيام واسمه شبيه باسم حضرتك يا مولاي ولكنك أنت تاجر وذاك رئيس جواسيس روسيا فقد قدم هذا الموظف الى عاصمة الفرنسيس ليثير حرباً عوانا على النهلست »

« فحدّق فيّ هذه المرة ملا كوف بي وقد أوجس ريبة ولكنه أظهر التبسم وعدم المبالاة سائلا »

« هل عثر رئيس الجواسيس هذا على أمر مهم ؟ »

« حدث بعد حضوره الى باريز أن البوليس السري اكتشف وجود قنابل ديناميتية في منزل أحد هؤلاء الاقوام فسُلّم الى الحكومة الروسية وهذا الامر قد حير غورتشا كوف غاية الحيرة لان الرجل نبتوفسكي كان قد حُذر قبل ذلك بعدة من أيام أن البوليس السري الفرنساوي سيفتش منزله فلم يفهم غورتشا كوف كيف أمكن بعد ذلك العثور على هذه القنابل في منزله »

— « ولكن كيف علموا ذلك حتى أنهم تمكنوا من تحذيره ؟ »

— « مولاي ان هؤلاء النهلست هم أبالسة في صور بشر وشياطين في ثياب حملان فقد رقبوا خطوات رئيس الجواسيس واكتشفوا رسالاته فان الخادم الذي أحضره معه الى هنا من بطرسبرج لم يكن سوى واحد من هؤلاء الاقوام »

فتميز ملا كوف غيظاً وثارت في رأسه سورة السخط ونظر اليّ قائلا والشرر يتطاير من عينيه

« هل كان خادمي سلنك نهلستياً ؟ »

« انى أقص على سيدي ومولاي حديثاً يختص بالجنرال ملا كوف رئيس الجواسيس الروسية ولا شيء له من العلاقة بأمر مولاي الذي حضر الى هنا ترويحاً للنفس من التجارة »

فاحمر ملا كوف ورفس برجله الارض على هذه الهفوة ثم نظر اليَّ قائلا

« ان ملابسة الاسمين قد أدت بي الى هذا الشطط فأكمل حديثك »

فعدت الى تتمة المقال غير مكترث

— « ولما كان الامر كذلك استنتج غورتشا كوف أن جواسيس الجنرال ملا كوف أنفسهم وضعوا هذه القنابل الديناميتية ليتيسر لهم بذلك تسليم نبتوفسكى الى الحكومة الروسية ومحاكمته هناك ومهما يكُ من الامر فان الرجل قد سُلم وحوكم ونفي الى سيبيريا ولكن الأمر المهم الذي أشغل أفكار غورتشا كوف هو اختفاء ابنة هذا الرجل فانها ذهبت وحتى الآن لم تعد وبعد التفتيش والتنقيب الطويل انجلت لهم واقعة الأمر وهو أن الجنرال ملا كوف نفسه رمى بها في نهر السين »

فوقف ملا كوف على قدميه وقد اصفر لونه وغارت عيناه وهو يقول

« أبلغ من قحة هؤلاء القوم أن يلصقوا بي هذه التهمة ؟ »

« اني أطلب الى مولاي ألا تأخذه حدة الغضب وأكرر على مسامعه مرة أخرى اني أقص عليه حديث ملا كوف رئيس الجواسيس لا ملا كوف التاجر الروسي »

فنظر اليّ باسماً ثم قال

« أنت هو الرجل الذي أطلبه منذ سنين فان كل جواسيسي بلداء وليس لهم أقل نفع فقد وضعت الآن من الافادات في يدي ما يؤهلني لمنصب وزارة الداخلية »

« وأنت يا مولاي هو الرجل الذي أطلبه منذ سنين عديدة فان لي أيضاً كثيرين من الجواسيس البلداء الذين ليس لهم أقل نفع »

فلم يتنبه ملا كوف الى جوابي اذ كان منشغلا بتعليق حواشٍ في كتابه ثم التفت اليّ قائلا وهو يبسم ابتسامة الفوز

« أيمكنك القاء القبض على غورتشا كوف هذا ؟ »

« سأضعه بين يدي مولاي بعد لحظة من الزمن ومقابلة لهذه الخدمة العظيمة

أرجوه أن يوقع امضاءه على هذه الاسطر الوجيزة »

ثم تقدمت اليه وسلمته ورقة فيها ما يأتي

« أنا الجنرال ملا كوف رئيس البوليس السري والجواسيس الروسيه أقر وأعترف ان القنابل الديناميتية التي وُجدت في منزل بنتوفسكي انما وُضعت عمداً بيد بعض الجواسيس الروسيين في باريز لتذنيب رجل بريء ولذلك أطلب الافراج عن هذا الرجل واعادته من المنفى »

فنظر اليّ غاضباً باحتقار وقال

« ما معنى هذا ؟ »

« المراد من ذلك أن تكفر باعادة هذا الرجل من منفاه عن بعض الأثم الذي ارتكبته في قتل ابنته »

« أمجنون أنت »

« هل الحديث الذي شرحته لك حديث مجانين ؟ »

« ما ذا يعنيني و يعنيك من كل هذا ؟ »

« يعنيك أنت لأنك ملا كوف جنرال البوليس السري والجواسيس الروسية في سائر الامبراطورية و يعنيني أنا لأني غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير جنرال النهلست في سائر العالم »

فانقبض الرجل كما لو أنه جرى الى أعضائه تيار كهربائي عنيف وجحظت عيناه واكفهر وجهه كأوجه الموتى ووقف تنفسه ولكن لم يكن الاّ مثل غمض الجفن حتى وثب نحو المسدس ولكنه لم يخطُ سوى خطوة واحدة أغمدت بعدها خنجري في صدره فأنَّ أنة طويلة وانقلب الى الوراء جثة لا حراك بها

وفي تلك الليلة بينما كنت مسافراً في القطار من باريس عثرت على خبر في أحد أعداد جريدة الدايلى مال مفاده أن رجلا يسمى أو بندورف في لندن وجد قتيلاً في غرفته دون أن يتمكن أحدٌ من الوقوف على أثر للقاتل

الفصل الثالث عشر

« شرارة الثورة »

ولبث أمرنا على هذا المنوال بين هبة وضجعة ورقدة ونهضة الى أن استعرت الحرب اليابانية الروسية فكان ذلك في تاريخنا فجر يوم جديد طلعت في سمائه شمس جديدة تحيي منا ميت الآمال وتنعش ذابل الرجاء لأننا رأيناها الوسيلة الوحيدة التي ننال بها المنى ونجد ضالتنا المنشودة وكنا نتوقع ونتمنى من صميم الفؤاد فشل دولتنا في هذه الحرب لأن ذلك يفتح باباً جديداً لنا في اثارة خواطر الأمة الروسية بأسرها ويتاح لنا أن نقوم بحركة عامة تختلف عن سائر الحركات والأعمال التي قد قمنا بها حتى الآن وذلك باحداث ثورة عامة في البلاد شبيهة بالثورة الفرنساوية تهتز لها عروش الملوك وتهلع قلوب الأمم

فاذا تبينت ذلك فقهت الأسباب الباعثة بفريق من كبار الأمة ومقربي البلاط الامبراطوري الروسي الى المناداة علناً بوجوب اشهار الحرب على اليابان مع علمهم أن روسيا ليست في شيء من الاستعداد الى ذلك وقد أطلق على هذا الفريق لقب حزب الحرب وما هو سوى أعضاء نهلستيين سريين في خدمة الحكومة الروسية

ولقد كان القيصر نقولا الثاني كارهاً كل ما من شأنه اثارة هذه الحرب جانحاً بكليته الى السلام وبقي يسعى الى ذلك جهده ويأمل حل المعضلة بالطرق السلمية حتى انه بعد أن رفع اليه سفير اليابان بلاغاً ينذره بانقطاع العلائق السياسية بقي يختلج في صدره هذا الأمل الكاذب الى أن باغتت بوارج اليابان الاسطول الروسي في بورت أرثر في حلك الليل ونسفت بعض المدرعات بالتوربيد خلسة واغتيالاً فأصبحت الحرب إذ ذاك ضربة لازب اضطرت روسيا الى ركوبها مكرهة غير مخيرة

ولما استعرت الحرب أصدرت أوامري الى سائر لجان الثورة في روسيا أن تكون جميعاً متأهبة للاقدام على عمل عظيم يرن صداه في سائر أنحاء الكرة الأرضية

وتتشنج له روسيا من أقصائها الى اقصائها

ولبث الأمر على هذا المنوال حتى حملت الينا الانباء البرقية خبر حصار بورت أرثر فعلمت أن الساعة التي سنقوم فيها بتلك الضربة الهائلة قد اقتربت ولذلك عقدت مجلساً في لندرا مؤلفاً من نخبة أعضاء النهلست وبقينا نتباحث فيه حتى مطلع الفجر فقر رأي سائر الأعضاء على القيام بحركة عامة في سائر الأنحاء الروسية تكون نتيجتها ثورة هائلة تذكر العالم بأيام لويس السادس عشر وحكم الأعضاء بوجوب ذهابي الى روسيا حيث كان قد سبقني الى هنالك الرئيس السابق بتروف منذ زمن طويل لتمهيد الصعاب واعداد وسائل الثورة

ورأينا انهاضاً للهمم وتحريكاً للخواطر أن نشعل جذوة الثورة ليس في روسيا فقط ولكن في سيبيريا وسائر الاصقاع البعيدة بحيث يكون اضطرامها في وقت واحد ولما كان يتعذر تسهيل المواصلات والرسائل الى تلك الانحاء الشاسعة ضربنا سقوط بورت أرثر موعداً للقيام بهذا العمل الخطير

فلم أبطىء بعد هذا عن التعجيل بالسفر الى روسيا ولما بلغت بطرسبرج اجتمعت ببتروف ولجنة الثورة هناك فأقمنا اسبوعين من الزمن ونحن في اجتماعات سرية دون انقطاع أتينا فيها على ما يجب تقرير عمله في بطرسبرج ولما كان الوزير بلف ناظر الداخلية رجلاً مشهوراً بشدة الشكيمة وتصلب الرأي والضرب على كل ما من شأنه اصلاح البلاد واقامة الدستور موضع الاستبداد والتضييق على أعضاء جمعياتنا سواء كانوا مجرمين أو أبرياء عقدنا اجتماعاً خاصاً للنظر في أمره فتقرر بعد المناقشات الطويلة الحكم عليه بالاعدام فلم يمر سوى وجيز من الزمن حتى أنفذ ذلك الحكم على ما نشرت تفاصيله سائر الجرائد الاوروبية

وحدثت أثناء وجودي في روسيا حركة في الخواطر لم يحصل نظيرها منذ وفاة القيصر اسكندر الثالث فان لجان الثورة هنالك هبت من ضجعة الخمول ونفضت عنها غبار الذل فأخذ كثيرون من نخبة الشبان وطلبة العلم والسيدات ربات الجمال يتواردون علينا فرادى وأزواجاً حتى فريق من عداد جواسيس

الحكومة الروسية ولكي تتمكن من معرفة الحد الذي بلغت اليه تلك الحركة أقص عليك حديثاً واحداً مثالاً يكثر من أنواعه

بعد أن زرعت بذور الثورة في روسيا عقدت النية على السفر الى ارجاء سيبيريا لتأليف لجان جديدة هناك عوضاً عن اللجان القديمة التي اندثر أمرها بسبب الضغط الشديد الذي أحدثه عليها الوزير بلف الذي لقي حتفه جزاء ذلك وكان لي غرض آخر وهو انقاذ أحد زعماء الثورة سابقاً ولكي أكون في مأمن من كل طارىء حصلت على جواز من بطرسبرج بواسطة بعض اخواننا من ذوي السطوة والكلمة النفاذة يعلن انني من جملة موظفي الحكومة الروسية بل ذاهب في مهمة سياسية تختص بجلالة القيصر نفسه حتى لا يتيسر لأحد التمكن من القاء القبض عليّ مهما كانت الأعذار الباعثة على ذلك

فقطعت في سيبيريا نحواً من ألفي ميل وبينما كنت في مدينة وأنا على وشك السفر الى الأصقاع البعيدة واذا بأحد ضباط الفرسان وهو صديق قديم لي يسمى فارتنسكي ومن الأعضاء العاملين في جمعيتنا تقدم ورغب اليّ أن آخذ معي الى اركوتسك أحد أصدقائه فأجبته الى ذلك وبينا أنا أنتظر واذا بسيدة في ربيع الحياة ومقتبل العمر قد قدمت الينا وعليها ثياب السفر فتأملتها واذا هي غادة تزري قامتها بالغصن الرطيب وتخجل طلعتها البدر فقال لي صديقي فارتنسكي « هذه السيدة هي الصديق الذي رجوتك بشأنه ولي الشرف أن أعرفك بها فهي السيدة ايداسندرسكي » ولم يذكر لي بشأنها أكثر مما تقدم فكنت على جهل تام من أمرها والغرض الذي لأجله سائرة معي الى أقاصي سيبيريا

ولم يكن سوى طرفة عين حتى ودعنا أصدقائنا وأخذنا نقطع تلك الفيافي والقفار المغطاة بالثلوج المتراكمة بعضها فوق بعض فجرت بنا العجلة جرياً سريعاً وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث وصار بيننا شيء من التعارف التفت الى الغادة التي بجانبي وقلت

— « لماذا تتجشمين ياسيدتي مشاق السفر الى أركوتسك البعيدة ؟ »

فأجابتني بالأفرنسية

« اعذرني يامولاي اذا أبقيت غرضي من هذا السفر مكتوماً » ثم تأملت لحظة من الزمن وقالت بصوت رخيم «ان ذلك لمن الأسرار التي لا يمكن الاباحة بها»

ثم لبثنا سائرين بعد ذلك دون أن ننبس بكلمة أخرى وكلٌّ منا غارق في أبحر هواجسه والظاهر ان ارتجاج العجلة افضى برفيقتي الى النعاس فأغمضت جفونها الطويلة الاهداب وأخذتها سنة الكرى فمال رأسها حتى لامس كتفي فغطيت وجهها الجميل بقبعة الفرو التي على رأسها ايقاءً لها من زمهرير البرد وكانت تتكلم أثناء نومها بألفاظ مقتضبة غير مفهومة وكانت دلائل الوناء والكلال بادية عليها لأنها لبثت في هذا الرقاد على هذه الحال زمناً طويلاً وأنا لا أتحرك من موضعي خوفاً من ايقاظها مفكراً في ماعسى أن يكون الغرض الذي قد بعث بهذه السيدة اللطيفة أن تتحمل سفراً بعيد المسافة يعجز عن القيام به أقوياء الرجال ولبثت على هذا المنوال كل ذلك الليل الى أن انبثق الفجر ووقفت بنا المركبة بجانب خان على الطريق فلما فتحت عينيها ورأت رأسها على صدري ذُعرت واحمرت وجنتاها واعتذرت اليّ ثم نزلنا في الخان ولبثنا فيه ذلك النهار والليل التالي

ولما ارتحنا من مشاق المسير واصلنا السفر فاذا وجدنا خاناً على الطريق نزلنا فيه والاّ تابعنا المسير ولبثنا كذلك أياماً وأسابيع نقطع تلك الثلوج حتى جاوزنا أوشيم وأومسك وكوليڤان الى أن بلغنا تومسك بعد سفر ألف ميل فكانت ايداسندرسكي في هذا السفر لغزاً من الألغاز التي لم أتمكن من حلها وتبين لي أنها سيدة ذات صلة بالأشراف والأمراء لأنها كانت تقص عليّ أحاديث أقوام من أصدقائها في بطرسبرج يعدون في أعلى طبقات الأمة وأشراف أسرها وكنت أظنها سيدة من مقصورات الجمال وربات الخدور لما رأيت من ظرف حديثها وأدب كلامها ولكن لما ذكرت أنها صديقة فارتنسكي الذي اشتهر في بطرسبرج بالتردد على محال اللهو وبيوت الخلاعة ظننتها خلاف ذلك

ولقد التقينا في أثناء هذا السفر الطويل بكثيرين من السجناء الذين أناخ عليهم الدهر بكلكله فمشوا يجرون سلاسل الذل وقيود العبودية وسط تلك الثلوج الكثيفة واليأس قد كتب على أوجههم أسطراً من التعاسة والشقاء فكانت تنظر

اليهم ايدا بعيون ملؤها اللطف وقلب تختلج فيه عاطفة الحنو و بينا هي تنظر الى هؤلاء التعساء واذا بواحد من القوزاق رفع سوطه وضرب به ظهر امرأة من المنفيين ضئيلة الجسم شاحبة اللون فأثار ذلك حنق ايدا ونظرت اليّ قائلة

— « ما أظلم الشريعة الروسية ؟ »

فالتفت اليها وأجبتها

— « الافضل ياسيدتي أن لا يتفوه الانسان بمثل هذه الألفاظ في هذه البلاد لان انتقاد أعمال الحكومة الروسية قد يعود على المنتقد وبالاً وخسراناً »

— « لا يهمني ذلك ولو انك علمت بعض ما أعلم مما يجري في الامبراطورية الروسية من أنواع المغارم وألوان المظالم وأشكال الرشوة والفساد لم يكن لك الى السكوت من سبيل »

وكان كلامها بالافرنسية لكي لا يفهم السائق شيئاً منه فأحنيت رأسي نحوها وهمست في أذنها قائلاً

« اذاً يا سيدتي أنتِ في عداد النهلست »

فذعرت لهذا الكلام ذعراً شديداً وارتجفت أعضاؤها واصفر لونها ثم مسكت بيدي قائلة

« من أخبرك ذلك وهل فعلت أمراً فشيت به سري ؟ »

« ان في كلامك اشارة بينة الى ذلك أما الآن وقد اكتشفت هذا السر أفلا تبوحين لي بهذا السر الآخر العظيم الذي تجشمين هذه الأسفار لأجله ؟ »

فارتجفت أعضاؤها ثم نظرت اليّ قائلة

« أستحلفك بالله ألاّ تعود فتفتح لي هذا الحديث مرة أخرى فان السائق قد يفهم شيئاً منه وعند ذلك نصير كلانا في عداد الأموات »

فأخذت يدها بيدي وهمست في أذنها الكلمة النهلستية ثم قلت

« أبقي عندكِ شك في اخلاصي ؟ »

« اني أثق بك غاية الثقة ولكن ماضيّ قاتم كالليل »

« ألا تسمحين لي بمعرفته أفلا يمكني تخفيف شيء منه ؟ »

« ان ماضيّ مشوه بالمحاتلة والمخادعة ولو عرفته لاحتقرتني فالأمثل بي أن

أحفظه مكتوماً طيّ صدري »

« ولكن اخبريني شيئاً واحداً وهو هل فارتنسكي ولي أمركِ ؟ »

فرفعت نحوي عينيها المغرورقتين بالدموع ثم قالت

نعم « هو — هو صديقي الوحيد »

فظننت سوءاً في الأمر ولمت نفسي على إلحاحي في سؤالها ثم نزلنا بعد هذا في خانٍ فسكبت ايدا الشاي لي وللسائق على جاري عادتها أثناء السفر فلاحظت أن السائق عند ما تناول قدحه بعد سكبه من الآلة التي نسميها في روسيا بالسموفر نظر الى ايدا نظرة كلها حقد وضغينة ولكن لم تلبث تلك النظرة على ملامح وجهه سوى لحظة واحدة عاد بعدها الى سكونه المعتاد فجلست وايدا نتجاذب أطراف الحديث أثناء الليل وتلك النظرة العدائية التي بدت على وجه السائق لم تبرح من مخيلتي وأنا أناجي نفسي أهنالك سرٌّ لا أدريه بينهما أو انه فهم ياترى مغزى السر الذي باحت لي به

ولما انبثق الفجر كنا لا نزال بعيدين نحو ستين ميلاً عن أقرب قرية في ذلك الجوار فخرجت أروح النفس بالرياضة قليلا وأتنشق ذلك الهواء النقي وأدخن لفافتي وأنا غارق في أبحر الهواجس أفكر في ماعسى أن يكون من أمر هذه الثورة التي قد قدحت زنادها في روسيا وسيبيريا ولبثت كذلك حيناً من الزمن فلما عدت الى الخان وجدت صاحبه قد علته صفرة الوجل وأعضاؤه ترتجف من شدة الجزع وقد بلغ منه الهلع مبلغاً عقد لسانه وأعدمه النطق فأدركت أن نائبة قد حلت في ذلك الموضع فلم يفه بكلمة ولكنه قادني بيدي الى داخل المنزل فشاهدت منظراً تقبضت له أعضائي خوفاً ودهشة وذلك أن سائق مركبتنا واسمه بلزنسكي كان موسداً على فراش من القش وسائر ملابسه عليه وفي صدره طعنة نجلاء بلغت قلبه وهو جثة لا حراك بها

أما ايدا فانها لما خرجت من غرفتها وعلمت بما حصل تبدت عليها لوائح الهلع والذهول ولم تدخل غرفة القتيل لأنها قالت أنها لم تطق مشاهدة مثل هذا المنظر الفظيع ثم دنت مني وأعضاؤها ترتجف ارتجافاً وهمست في أذني بالفرنساوية

أن نعجل بالمسير دون أدنى ابطاء فلما أخبرتها عن عزمي على التوجه الى اركوتسك لكي أبلغ البوليس خبر هذه الجريمة بدا على وجهها من ملامح الارتباك والحيرة ما دعاني الى الاشتباه بأمرها وخصوصاً لما بدا منها من الالحاح الشديد في متابعة السير دون ابطاء ثم لاحظت على رسغ احدى يديها خدشاً صغيرا فزادت الدلائل الباعثة على الاشتباه حتى أصبحت على يقين أنها هي الجانية فناجيت نفسي قائلا ان هذه الغادة الهيفاء رفيقتي في هذا السفر ليست سوى قاتلة وسفاكة دم

ولما بلغنا أخيراً مدينة أركوتسك نزلنا في خان وكان الوقت أصيلا فتناولنا الطعام وارتشفنا الشاي وكانت ايدا صفراء اللون مضطربة الملامح ولكن كل ذلك لم ينقص شيئاً من جمالها الفتان فلم يكن سوى بضع دقائق من مناولة الشاي حتى اختفت عن الابصار ولما لم أجدها سألت عنها أحد الرجال الذي كان يتدفأ في جانب النار وكان قد وصل في تلك اللحظة وهو ينفض الثلج عن حذائه فقال لي أنه شاهدها وهو قادم داخلة سراي الحاكم ثم تبسم وقفّى على ذلك أن حضرة الحاكم من أرباب الذوق السليم وأن له خبرة تامة بالجمال والجميلات

فلم أتوقف لحظة بعد هذه الافادة بل تركت المنزل وتوجهت الى سراي المحافظة التي لم تكن تبعد عنا سوى بضع خطوات فعلمت عند بلوغي الموضع من الحارس الخارجي أن سيدة قادمة من سفر قد دخلت الى مقابلة المحافظ فأخذت أحد أتباع الحاكم على حدة وبعد مناقشة وجيزة في أمر السماح لي بالدخول نفحته بمائة روبل فأدخلني الى السراي الفسيحة الى أن بلغ بي غرفة جميلة الاثاث لاشيء بينها وبين غرفة المحافظ سوى ستائر كثيفة مدلاة من السقف حتى أرض الغرفة ثم تركني وانصرف فما أصغيت الا قليلا حتى سمعت صوت رجل أجش يقول بصوتٍ عالٍ

« اذاً قد حضرتِ بعد هذا الغياب أيتها السيدة اللطيفة ؟ »

فأجابته السيدة

« نعم عدت بعد هذا الغياب »

فعلمت من الصوت أن السيدة انما هي ايدا سندرسكى فتطلعت من بين

الستائر دون أن يتمكن أحد من رؤيتي فوجدت أنه يمكني مشاهدة كل مايحدث داخل تلك الغرفة التي هي أمامي فرأيت في منتصف الغرفة موقدا فيه نار متأججة اللهيب والى جانبها واقف رجل كهل بلباس الحرس القيصري الابيض وصدره مملوء بالوسامات التي تتألق تألق النور وأمامه واقفة ايدا يعلو وجهها الاصفرار ولكنها ثابتة الجأش براقة المقلتين كأنها ملكة في قصرها ثم رأيتها تكرر جوابها الاول على مسامع المحافظ وتقول له بعزم ثابت

« نعم عدت بعد هذا الغياب ولكن أخبرك يا جنرال زغلوسكي أني أود الآن التحرر من ربقة هذه الاعمال الشاقة التي اضطررتني الى القيام بها منذ بضع سنين عند ما كنت رئيس البوليس السري في بطرسبرج فاني كنت عندئذ فتاة نهلستية لم أختبر شيئاً من أحوال العالم فألقيت القبض عليّ و بعثت بي الى المناجم ثم خيرتني بعد ذلك أن تمنح لي حريتي وتبقي على شرف أخي العسكري على شريطة أن أصير في عداد هؤلاء الجواسيس الادنياء الذين تستخدمهم لقضاء أوطارك فسلمت لك حينئذ بذلك لاني كنت في ريعان الصبا لم أكد أدرج من خدر والدتي وقد لبثت الآن في هذه الخدمة الممقوتة نحواً من ثلاث سنين فقمتُ بهذه الواجبات المخجلة التي وضعتها عليّ قياماً أدى الى نفي كثيرين من الأقوام الأبرياء الذين يُسامون في هذه الدقيقة ضروب الذل وأنواع العذاب في المناجم التي هي في جوف الارض أو الاصقاع في أطراف سيبيريا بينا حضرتك جالس هنا تتنعم في هذا القصر الملكي برغد العيش و بذخه وتظهر أمام قيصرك مظهر الرجل العظيم الذي يكشف أسرار البشر ودسائس الاقوام و يفقه ما تكشف الصدور وما تكنّ »

فأجابها المحافظ بحنق شديد

« ولكن ماذا يعنيكِ من ذلك وهل يصح أن يكون حاكم نظيري عرضة لانتقادات فتاة مثلك ؟ وعليكِ أن تضعي نصب عينيكِ على الدوام أنكِ أحد عمال البوليس السري وأن واجباتكِ تقضي عليكِ بالسهر على أمن جلالة القيصر وأنه لابد لكِ من البقاء كذلك رضيتِ أم لم ترضي وإلا فاعلمي أنكِ

الآن في وسط سيبيريا وأنه لا يكلفني نفيكِ الى تلك المناجم الرهيبة سوى وضع امضائي على هذه الورقة التي أمامي فتصرفينَ بقية حياتكِ وأنتِ تجرّين سلاسل الذل وقيود الاستعباد وهناك تتعلمين من جنودي القوزاق كيف تكون الطاعة التي نسيتيها الآن فاذهبي أيتها الحمقاء ولا تريني وجهك في ما بعد »

ثم مدَّ يده ليقرع الجرس فتقدمت إيدا نحوه كاللبوة وقد أحرجت قائلةً

« لا بُد لك من سماع سائر ما تحملت لأجله هذه المشاق لا قوله لك فاني أخبرك أني قد أتيت الى هنا لأخطرك اني عازمة على أبدال هذه الخطة الممقوتة التي أنا سائرة فيها — جئت لأخبرك أنه يترتب عليك توقيع امضائك على هذه الورقة التي بيدي التي تحلني بها من هذا القيد الذي أُجبرت على وضعه في رجلي وألا يكون للحكومة بعد هذا حق في القاء القبض عليّ من جراء ذلك والا فاني . . . »

« أتتهددينني أيتها الفتاة فأرجوكِ أن تفيديني ما مبلغ اقتدارك اذا رفضت طلبكِ ؟ »

« لقد نصبتَ لي قبلا شراكك اللعينة فوقعت بها أما الآن فأنت واقع في شراكي فانك اذا رفضت بعثتُ الى جلالة القيصر بالبراهين الدامغة والاعتراف البيّن الذي به تعترف أنت نفسك انك أنت هو الرجل الذي قتل في غسق الليل ماري سكايا »

فانذعر المحافظ وتقبضت أعضاؤه وعلا الاصفرار وجهه وسألها بلهفة

« ولكن أنى لكِ معرفة ذلك ؟ »

ألا تذكر أنك أنت نفسك وقعت على هذا الاقرار وهل نسيت أننا نحن النهلست تتبعنا خطواتك واكتشفنا أمرك واضطررناك الى الاقرار فكان ذلك باعثاً على الابقاء عليك ؟ أو تجهل أني وقفت على الجريمة التي ارتكبتها منذ بضعة أيام وذلك أن أحد أخصائك المقربين قد قتل سائق مركبتنا في أرتنسك بطعنة خنجر في قلبه لان هذا السائق المسكين يعلم سرّ قتلك ماري سكايا ؟

فأجابها المحافظ بحنق

« انك تكذبين وماذلك سوى أفك مبين أترومين أن تبعثي بي انا نفسي الى مناجم سيبيريا ؟ ولكني أقسم لك انك ستموتين في حضرتي موتاً إذلاً بدلي من قتلك بيدي »

ثم أشهر في وجهها مسدساً وخطا نحوها فلم يكن سوى مثل وميض البرق حتى رفعت تلك الستائر الكثيفة وانطلقت نحوه انطلاق السهم ولكن يد الرجل كانت أسرع من خطوى فانطلق المسدس ولم تصب الرصاصة الغرض بل مرت فوق رأس ايدا وكسرت مرآة كبيرة في الجدار المقابل فهجمت عليه هجوم المستقتل واختطفت المسدس من يده قائلاً

« ان هذه الفتاة قد نيط الاعتناء بأمرها في هذا السفر بي ولقد سمعت سائر ما دار بينكما من الحديث وانا سنبقى هنا الى أن توقع امضاءك على هذه الورقة والاّ لبثنا أمامك طول الدهر »

فتهددني بالقاء القبض عليّ ولكني هزأت بتهديداته وأخبرته أن بيدي جواز يعلن أني في مهمة سياسية تختص بشخص جلالة القيصر وان يده أقصر من أن تصل اليّ بشيء من الأذى فتردد في الأمر نحواً من نصف ساعة وهو يفكّر تفكير من لا يجد له مناصاً الى أن وقع امضاءه أخيراً على الورقة وقبل خروجنا من الغرفة التفتت اليه ايدا قائلة

«اذا أمرت بالقاء القبض عليّ فان أخي يبعث باقرارك الى جلالة القيصر »

فسألت ايدا بعد نزولنا قائلاً لها « ومن هو أخوكِ ؟ » فقالت ان أخي وولي أمري هو صديقك فارتنسكي فصحت عند ذلك صيحة الدهشة والسرور وقلت لها انها ستكون في أثناء هذا السفر أعز لديّ من شقيقتي

الفصل الرابع عشر

« جذوة من نار »

ولكي تفقه سرعة حركة الخواطر التي تهيأت في نفوس القوم للتحفز الى الثورة بسبب اللجان التي أنشأتها في أقاصي روسيا لا بد لي من سرد حادثة واحدة تكون دليلاً على كثير من أمثالها على النهضة التي حصلت من أنفس القوم وهبوبهم لكسر نير الظلم وقيود الاستبداد التي لبثوا راضخين لها مئات من السنين دون

أن يبدوا بشأن ذلك تذمراً أو يرفعوا صوتاً

فاني بينما كنت راجعاً من تلك الاقصاء السحيقة رأيت قصر المحافظة في بلدة كنت قد أنشأت فيها من منذ بضعة أشهر أثناء مروري الى سيبيريا لجنة ثورية واذا ذلك القصر قد أصبح أطلالاً باليـة ورسوماً دارسة فسألت أحد الأعضاء الذين خفوا لاستقبالي عن سبب ذلك فنظر اليّ الرجل نظرة المدهش لابداء مثل هذه الملاحظة ثم قصّ عليّ الحديث الآتي

ان المحافظ الذي كان يقطن هذا القصر الذي رأيته أثناء مرورك هنا وقد أصبح الآن رماداً انما كان رجلاً فظ الأخلاق شرس الطباع ظالماً عاتياً وكان وصياً على شاب يسمى درنقتش اغتصب منه أملاكه الشاسعة ولكنه سمح له أن يقيم معه في داره وكان المحافظ شديد الوطأة على الفلاحين الذين بلغ بهم الفقر المدقع مبلغاً فاحشاً وخصوصاً أن تربة هـذه الأرض قاحلة لا تنبت سوى النزر القليل مما يقوم ببعض أود هؤلاء الفلاحين المساكين وفي أيام الشتاء يشتد البرد القارص الى حد لا يكاد يطاق وبسبب انتزاف مال الفلاحين لم يبق لهم ما يمكنهم من الحصول على وقود أثناء الشتاء أو شيء من ضروريات المعاش لسد جوعهم

وحدث ذات يوم ان المحافظ كان جالساً في قصره المنيف حيث كان يعيش بالبذخ والاسراف ان كاتم أسراره دخل عليه قائلاً

« ان على الباب يا مولاي فريقاً من الفلاحين يودون مشاهدتك »

فحدق فيه المحافظ وقال

« ماذا يروم هؤلاء الأقوام مني ؟ »

« لم يفيدوني يا مولاي ولكنهم يطلبون مقابلتك نفسك »

فوقف الحاكم عابساً وقال « اذا كان هؤلاء الأقوام قد حضروا ليبثوا لي شكواهم أو ليتذمروا من الحالة التي هم عليها فانهـم سوف يدركون أي منقلب ينقلبون — دعهم يدخلون »

ولم يكن سوى دقيقة من الزمن حتى دخل هؤلاء الأقوام على المحافظ وهم في ثياب رثة وأعضاؤهم ترتجف من شدة البرد فحدق فيهم المحافظ قائلاً

«ماذا تريدون من مقابلتي وكيف تجسرون على الحضور الى على مثل هذا المنوال؟»

فخاطبه كبيرهم وقد كفّر بين يديه وسجد

« ارحمنا أيها المولى العظيم فاننا قد أتينا لنترامى على أقدامك »

« ماذا ترغبون ؟ »

« أتينا لنقص عليك ان الجوع قد أخذ منا مأخذه وقد أصبحنا في حاجة الى كل شيء ولذلك فان عبيدك لا يتمكنون من دفع أجرة المنازل التي اعتدنا قبلاً دفعها وغرضنا الآن أن نستميح منك الاذن لتتهمل علينا قليلاً ريثما يمن الله علينا بالفرج »

وكان سائر هؤلاء الفلاحين وقوفاً أمامه باحترام وقبعاتهم الرثة بأيديهم وعيونهم مطرقة الى الأرض لا يجسرون على رفعها نحوه وأعضاؤهم ترتجف من الخوف فنظر اليهم المحافظ بامتهان وقال

« لا بد لكم من دفع ما ترتب عليكم دفعه فاذا أبيتم عددت ذلك عصياناً وأنتم أدرى ما يحل بكم من العقاب أثر ذلك »

فعاد كبيرهم الى الكلام وهو رجل قد أحنى الكبر ظهره وبيض المشيب رأسه

« ان ما تطلبه منا الآن هو فوق الطاقة البشرية لأنه ليس لنا ما نسد به جوعنا حتى انه لو أتى أبونا القيصر نفسه وطلب منا ذلك لم نكن لنقدر على القيام بشيء منه »

« لست من الذين يحبون تكرير الكلام ولذلك أخطرتكم أنه لا بد لكم من دفع سائر ما عليكم خلال اسبوع واحد من الزمن »

« ولكن ذلك محال لأنه ليس لدينا شيء من الدراهم ولا ما نبيعه للحصول على ذلك »

« لا تكثروا أمامي الكلام فقد أخبرتكم انه لا بد لكم من دفع سائر ما عليكم خلال اسبوع واحد وانصرفوا الآن عني الى مواضعكم »

« ألا يوجد في قلبك شفقة على أطفالنا ونسائنا ألا يرق قلبك على هؤلاء المساكين الذين يتضورون الآن جوعاً ؟ »

فكان جواب المحافظ الأخير

« انصرفوا عني وعودوا بالدراهم بعد اسبوع »

وكان الشاب درنقتش جالساً بجانبه فحاول أن يستعطفه فلم يرَ سوى أذن صماء وقلب قُدّ من جلمود فانصرف القوم من حضرته وقد علت وجوههم صفرة الوجل ولما انقضى الاسبوع ولم يكن هنالك ما يسدون به مطالب المحافظ انهالت السياط على ظهور القوم تلدغهم كالافاعي فخنق الأهالي لذلك حنقاً شديداً وكادوا يثورون على ذلك الحاكم العاتي ولكنه أحضر شيوخ البلدة وجلد كلاً منهم مائتي جلدة في الساحة العمومية

وكان درنقتش يصرف أكثر أوقاته في التنزه في الجنائن والأحراج تخلصاً من وصيه العاتي وبينما كان مرة كذلك بجانب الأشجار رأى على مقربة منه ابنة بارعة الجمال بديعة الحسن ولم تكن الفتاة تشعر بوجوده الى جانبها لما كان بينهما من الأشجار الغضة فتأمل درنقتش في قامتها التي تزري بالغصن الرطيب وجمالها الرائع الذي يأخذ بالأبصار وعينيها الفاتنتين وشعرها الاسود الحالك ووجهها المزدان بملامح الطهارة كما لو كانت ملكاً فتقدم اليها وكلمها فذُعرت منه ولكنها ما لبثت أن استأنست به فعلم منها أن اسمها نكامولي ابنة شنوف احد مزارعي المحافظ فشغف بها شغفاً شديداً وتعاهدا أن يجتمعا سراً كل يوم في ذلك الموضع ولبثا يجتمعان على هذا الاسلوب حيناً طويلاً من الدهر وتعاهدا أن يكونا حبيبين ولما رأى درنقتش من حسن أدبها ولطف معشرها ما خلب لبّه صمم أخيراً أن يطلبها زوجة له من أبيها

فتوجه الى كوخ الرجل وباح له بحبه لابنته وطلب اليه أن يزوجه منها فلما سمع منه الرجل ذلك رفع يديه الى السماء قائلاً

« أأنت تحب ابنتي؟ - أأنت واقع في غرامها؟ — اني أستحلفك بالله أن تحول عن ذلك لأنه اذا علم المحافظ جلية الأمر كان ذلك علينا وبالاً وأوردا بنتي حتفها»

فطيب درنقتش خاطر الرجل وأخبره أنه يحميها من كل سوء ويرد عنها كل مكروه وانها متى أصبحت زوجته فان المحافظ لا يجسر على الاتيان بمثل هذه الأعمال البربرية فأبى الرجل مراراً ولكنه أذعن أخيراً بعد الحاح الشاب الشديد فتزوج بها سراً في بلدة أخرى عن يد قس قام لهما بالطقوس الدينية المألوفة ثم عاد

الى البلدة و بقي أمرهما مكتوماً فكانا يجتمعان في الجنائن أمامهما الزهور وفوقهما الأشجار الباسقة والطبيعة تبسم لهما عن ثغر يفتر بالسعادة و بينما كانا مرة على هذا المنوال التفت اليها درنفتش قائلاً

« أود يا حبيبتي أن أعلن بعد قليل زواجنا على رؤوس الاشهاد حتى تكوني سيدة عزيزة الجانب محترمة المقام » فأجابته قائلة

« دعنا نبقى الآن كما نحن لأنه اذا علم المحافظ أمرنا فرّق بيننا و بعث بي الى موضع آخر كما فعل قبلاً بفتاة أخرى من هذه البلدة »

واتفق ان كان على مقربة منهما كاتم أسرار المحافظ وهما لم يشعرا به فسمع ما دار بينهما من الحديث فقصه على سيده المحافظ

فلما عاد درنفتش الى قصر المحافظة بش المحافظ في وجهه وهش له على خلاف عادته ثم لم يكن سوى بضع دقائق حتى نظر إلى الشاب وقال له

« هل لك يا درنفتش أن تقوم لي بخدمة أحفظها لك مدى الدهر فاني في ضيق مالي شديد وأحب أن أرفقك برقيم الى أحد أصدقائي في احدى المدن المجاورة فتحضر لي كمية من الدراهم التي يسلمك إياها »

فرضي درنفتش بطيبة خاطر أن يقوم بهذه المهمة وركب لساعته فرسه وأخذ ينهب الطريق نهباً ولكنه بعد أن سار بضع ساعات خطر في باله أمر أقلقه وهو أن الحاكم قد يكون بعثه في هذه المهمة ليوقع بامرأته شرًّا فأخذت منه الهواجس كل مأخذ و بعد أن سار هنيهة عزم أخيراً على الرجوع لأنه شعر انه ترك امرأته وحيدة شريدة ليس لها من يحامي عنها أو يأخذ بناصرها اذا وقعت في ضيم ثم أدار فرسه نحو الطريق التي أتى عليها وأخذ يعدو ولما عاد الى البلدة كانت الشمس على وشك المغيب فلما بلغ الساحة العامة وجد هنالك جمًّا غفيراً تعلو وجوههم صفرة الوجل فعلم أن لا بد من نائبة قد حلَّت ولما تأمل قليلاً ذلك الحشد سمع صراخ امرأة يمزق الفضاء فعلم أن الباعث على ذلك الألم الناشيء عن الجلد بالسياط ولما دنا من الموضع شاهد منظراً تقشعر له الجسوم وتهلع القلوب إذ رأى امرأة معراة الى وسطها وهي مربوطة الى آلة خشبية

وأحد أتباع المحافظ يرفع سوطاً خشناً ثم ينزل به على تلك المنكودة الحظ حتى صبغ دمها ظهرها وجرى الى الأرض ولما تفرس بوجه المرأة وجدها عروسهُ

فهجم الشاب على الرجل الذي كان يجلدها وأمسك يده والتفت الى المحافظ قائلاً

« ماهذا الذي أرى امامي ؟ »

فأجابه المحافظ بخشونة

« ليس لك شأن هنا والأمثل بك أن تجري إلى دار المحافظة »

« لا أسمح بمثل ذلك لأن هذه الفتاة هي امرأتي »

« إني أعرف ذلك وهي غداً تكون على طريق المنفى إلى سيبيريا »

ثم التفت إلى الضارب وقال له

« أجهز عليها »

فحاول الرجل منعه ولكنه قبل أن يفعل ذلك وقع السوط على ظهر تلك المسكينة بذوائبه الرصاصية فسُمع صوت كفرقعة مسدس فاعن الشاب المحافظ ثم انتزع من جيبه مدية قطع بها وثاق الفتاة ووضع وجهها الأصفر على وجهه وقبلها بحرارة ولكنه لم يقبل عروسه بل جثتها إذ أنها أصبحت في عداد الأموات وإذ ذاك رفع نظره الى السماء وأقسم في قلبه أن يأخذ بثار امرأته من ذلك المحافظ انقاتل

وكانت لوائح الغيظ والغضب تلوح على محيا الاهلين الذين شاهدوا هـذا المنظر الفظيع ودلائل التهديد وشق عصا الطاعة تبدو على وجوههم اذ أني كنت في عدادهم أما درنفتش فانه تاه في الجنائن ولم يعد الا مساء اليوم التالي فوجدني مع عدة من الاهلين واقفين بجانب دار المحافظة ولما سألني عن السبب في ذلك أخبرته أنا أتينا لنأخذ بثار تلك الفتاة التي ذهبت أمس ضحية بربرية هذا الظالم فانتظم في عدادنا واذ كان قد جنّ الليل دخلتُ ودرنفتش وصديق آخر الى المحافظة خلسة حتى بلغنا غرفة المحافظ نفسـه وكان اذ ذاك نائماً فلما شعر بحركة هناك ذعر ذعراً شديداً وهب من نومه حيران وأول من تقدم اليه كان درنفتش وبيده خنجر مسلول فلما رآه المحافظ جزع جزعاً شديداً وصاح به قائلا

« ابقِ عليّ يادرنفتش - ابقِ عليّ وارحمني »

فأجابه هذا بتهكم

« هل أبقيتَ على امرأتي أمس عند ما رجوت منك ذلك جاثياً على قدميَّ واني لأجرعنك الآن كأس الحمام بيدي »

وما أتى على ختام ذلك حتى أغمد خنجره في قلب المحافظ فأنَّ أنة عميقة ثم سقط على الارض جثة لا حياة بها ولما قضي على الرجل دخل سائر رفاقنا الذين تخلفوا عنادار المحافظة وأشعلوا فيها النار وسط ذلك الليل الدامس فكان منظراً رهيباً لم أرَ في حياتي مثله قط ولما تبلج صبح اليوم التالي كانت دار المحافظة طللاً بالياً ورسماً دارساً

الفصل الخامس عشر

« فلها ثورة وفيها مضاء »

لما عدت الى بطرسبرج نحو مغيب العام الماضي كانت بورت أرثر آخذة في الاحتضار شيئاً فشيئاً يبتر جسمها عضواً عضواً و بينما كان الجنرال ستوسل يعلن على رؤوس الاشهاد أن تلك القلعة منيعة الجانب بعيدة المنال كان عمالنا ينبئوننا بالتلغرافات السرية التي كان يرسلها ذلك القائد تباعاً الى وزارة الداخلية يشرح فيها خطارة موقفه والاخطار المحدقة من كل جانب وأنه لا يتسنى له المناضلة سوى بضعة أسابيع اذا لم ينجده أسطول البلطيك

وكان كلما مرَّ يوم من شهر ديسمبر الماضي أشعر بدنو تلك الساعة الرهيبة التي وقفت حياتي وثروتي لأجلها فتحفزت للوثوب الى هذه الامنية تحفز الرئبال وعلمت أني اذا لم أضرب في مثل هذه الفرصة السانحة الضربة الهائلة التي تقوض اركان الاستبداد وتزعزع عرش الامبراطورية المطلقة في روسيا وتحدث بذكرها جرائد العالم وألسنة الناس من أقصاء المعمور الى أقصائه ذهبت سائر مساعيَّ أدراج الرياح ولم أفز من الأماني والآمال التي بنيتها بوطر و بينما كان جلالة القيصر نقولا الثاني أمبراطور الروس جالساً في قصر الشتاء يصدر أوامره الى انحاء

منشوريا وأسطول البلطيك كنت أنا غورتشاكوف سرجيوس فلاديميرأمبراطور النهلست أصدر أوامري من قصر في بطرسبرج لايبعد كثيرًا عن قصر القيصر الى سائر لجان الثورة في أنحاء الامبراطورية الروسية فيصدع بها ألوف من نخبة الشبان وأشراف الامة ووزراء الدولة الذين لم يكونوا سوى عمال سريين يرضخون لأدنى اشارة تصدر من زعيمهم كما يرضخ اليسوعيون لسائر أوامر جنرالهم دون أن يسألوا كيف أو لماذا

ولما انصرمت أيام العام الغابر وانبثق فجر العام الجديد أصبحت كمن على نار الغضا أحسب الدقائق أيامًا والساعات أشهرًا واليوم سنة وخصوصًا أن البوليس السري أظهر من النشاط وكثرة التنقل من موضع الى آخر ما يؤخذ منه أنه أوجس خيفة من مكيدة لم يقف حتى الآن على شيء من تفاصيلها ولكنه لم يتبلج صباح اليوم الثالث من شهر يناير حتى أتت التلغرافات تترى تفيد ان لم يبق في قوس بورت أرثر منزع وان الحامية قد سلمت فكان سقوط تلك القلعة المنيعة أشارة إلى سائر لجان النيهيلست في روسيا ان الساعة للقيام إلى الثورة العامة قد حلت فكأن روسيا وبولونيا وسائر انحاء الامبراطورية الروسية بأسرها مخزن ديناميت كبير وسقوط بورت أرثر شرارة كهربائية وقعت عليه فألهبته

ولا بُد هنا من بيان الأسلوب الذي تمكنت به من تحويل حركة نهلستية بسيطة اعتيادية الى ثورة عامة التهبت جذوتها في سائر انحاء المملكة وذلك أني رأيت عند قدومي الى روسيا قبل سفري الاخير الى سيبيريا أنه لابد لنجاح هذه الحركة من اشتراك سائر العمال فيها على اختلاف أنواعهم ومهنهم في جميع أطراف المملكة فعند حلول الوقت المعين يضربون جميعًا عن العمل لمطالب يطلبونها من أصحاب المعامل ثم اذا مرّ على ذلك بضعة أيام تغيرت وجهة الاضراب عن العمل واصطبغت بصبغة سياسية بحتة ومن البديهي أن العمال انما هم جسم الأمة وقوامها فاذا امكن انضمام كلمتهم في مطالب سياسية كان ذلك أمام القيصر وأوربا والعالم بأسره عبارة عن مطالبة سائر الأمة الروسية بذلك وأصبح لهذه الحركة شأن يختلف كل الاختلاف عن سائر الحركات السياسية السابقة

ولكن لابد من القيام بذلك ونجاحه من أمرين هامين أحدهما موافقة زعماء أولئك العمال على ذلك وثانيهما أن يكون الزعماء وحدهم عالمين بسريرة الأمر وأن يبقى العمال أنفسهم في جهل تام بخصوص تحول الحركة الى غرض سياسي بعد الاضراب عن العمل ولذلك كان الغرض الذي رميت اليه عند وصولي الى روسيا جمع كلمة هؤلاء الزعماء ولما كان اكثرهم من أعضاء النهلست لم يكن هنالك صعوبة كلية في الأمر فتمكنت بواسطة هؤلاء من ادخال الباقين في عداد جمعيتنا فأصبحوا جميعاً طوع بناني يأتمرون بأوامري وينتهون بنواهيّ

وفي منتصف ليل اليوم الثالث من يناير جرت بي مركبة تسابق خيلها الرياح الى قصر منفرد في أطراف بطرسبرج تحف به الجنائن الغناء من كل جانب ويتأرج من أزهاره أرج الروائح العطرية تنطح أشجاره الباسقة عنان الجو وتكسو نضارة الخضرة أرضه الفسيحة لا تبلغه جلبة القوم وضوضاء الجماعات بل هنالك سكون تام لا يسمع وسطه سوى هبوب الرياح وحفيف الاشجار

الى هذا القصر المنفرد المنيف سددت خطواتي بعد نزولي من العربة ولما بلغت قاعته الكبرى اذا بها غاصة بجماهير نخبة النهلست وزعماء العمال وكانت الأنوار تتألق فيها تألق الشموس فلما جلست على كرسي الرياسة تفرست في القوم فاذا هم صامتون كأنّ على رؤوسهم الطير وكان منظر ذلك الاجتماع مهيباً وقوراً ولا غروَ فانه أعظم اجتماع نهلستي التأم في الامبراطورية الروسية حتى الآن وحريٌّ أن يكون على هذا النمط نظراً لخطارة موضوعه والغرض العظيم الذي يرمي اليه والآمال السامية التي كانت معقودة بنواصيه والنتائج البعيدة التي ترتبت عليه مما لا يزال صداه يرن في الآذان حتى الساعة فانه مصدر الشرارة الاولى لهذه الثورة العظيمة التي لم يعهد لها نظير منذ أيام الثورة الفرنساوية والتي لا يعلم الا الله متى تكون نهايتها فاني أقص هذا الحديث عليك والتلغرافات لا تزال ترد فراداً وأزواجاً تنقل حديث عراك عظيم ومذابح دموية شديدة وصراخ يمزق كبد الجو وآلام تهلع لها القلوب وهي آلام أمة تربو على مائة وعشرين مليوناً آخذة في الخروج من دياجير الجهل والاستبداد الى جنائن العدل والحرية ولا

بد لها قبل بلوغ ذلك أن تخوض أقدامها في دم أبنائها وتتضرج أياديها بدم أطفالها

ولما استقر بي المقام في ذلك النادي الرهيب التفتّ الى الاعضاء مخاطباً

« أيها الاخوان لقد التأمنا الآن للمداولة بخصوص القيام بضربة عظيمة تحرر بلادنا من ربقة الاستبداد وتضرب على أيدي الجور وتغل عضد الظلم وتخرج بأعظم أمة أوربية من بيداء الرق الى جنات الحرية فهل أنتم راضون عن ذلك ؟ »

فأجاب سائر الاعضاء من دون تخلف واحد : « بلى بلى اننا راضون كل الرضى » : فعدت الى ثتمة الكلام قائلاً : « اذا كان الامر كذلك فلا بدلي من تذكيركم أولاً أن الفرصة التي سنحت الآن قد لا يتيسر لنا الحصول عليها مرة أخرى في مستقبل العمر فان دولتنا مشتبكة في حرب تشيب لهولها الولدان في بلاد سحيقة حيث جيوش الحكومة التي هي ساعدها الاقوى بعيدة عنا لا نخشى شيئاً من بأسها ووطأتها ولقد سقط كثيرون من اخواننا جرحى في ميادين الوغى وارتدت ألوف من الاسر الروسيه أثواب الحداد فالامة الآن ناقمة على الحكومة اذ دخلت هذه الحرب الشعواء دون أن تكون من الاستعداد على شيء وكل يوم تعلو أصوات التذمر وغرضنا الآن من هذا الاجتماع أن نحوّل حاسيات الامة الى أصوات تكون رعوداً قاصفة تبلغ آذان القيصر وتحمله على منح الدستور للبلاد والامة واعلموا أننا اذا تمكنا من نوال الدستور في هذه الآونة فليس سقوط بورت أرثر سوى نهضة روسيا وليست بلايا الحرب الحاضرة ونوائبها سوى بركة عظيمة اذا كان من وراء ها حرية مائة وعشرين مليوناً من النفوس والسؤال الذي أطرحه عليكم الآن هو ما هي الطريقة التي يجب علينا الجري عليها في نوال الغرض الذي نسعى اليه »

فحصل على أثر ذلك سكوت عظيم ثم قام بعض الأعضاء وأجابوا عليه كما يأتي

« الطريقة المثلى هي اغتيال القيصر » — « يجب علينا قبل ذلك اغتيال العمال الذين هم تحت سلطته » — « نقوم أولاً بأعمال ارهابية بقنابل الديناميت » — « يجب نسف سائر مصالح الحكومة دفعة واحدة في يوم واحد » — وبعد أن تكلم كثيرون على مثل هذا النمط عدت الى ثتمة الكلام فقلت « لا يجب علينا أن نقوم بشيء من هذا في الوقت الحاضر لأننا كنا نقوم قبلاً بمثل هذه الضربات باسم النهلست وأما اليوم فاننا نتكلم باسم الأمة الروسية ونضرب بساعدها وها ان عيون

أوربا والعالم بأسره شاخصة الينا فلا يليق بنا أن نتخذ جانب العنف والارهاب مما تعود علينا تبعته باللوم ولكن الطريقة الفضلى هي أن نطلب الدستور من القيصر أولاً باسم الأمة باللين والرفق ولما كانت الأمة ممثلة بجماعة العمال ترتب أن يكون ذلك على يدهم والذي أحكم بلزوم عمله هو اضراب العملة عن العمل ولما كان زعماؤهم حاضرين معنا الآن واخواناً لنا في المبدأ والرأي تيسر لنا القيام به »

و بعد مداولات طالت نحواً من ثلاث ساعات قرّ الرأي على ما ترى الشروط التي لأجلها يضرب العمال عن العمل والتي يجب أن تتلى عليهم هي ما يأتي (١) أن لا تزيد مدة العمل في النهار على ثمان ساعات (٢) تعيين قيمة العمل مما تقوم به لجنة مؤلفة من العمال والنظار عليهم (٣) تعيين لجنة دائمة تكون حكماً في مواد الخلاف (٤) أقل أجرة الفاعل اذا كان رجلاً روبلاً في النهار (٥) أقل أجرة المرأة نصف روبل (٦) لا يلزم العامل بالاشتغال أكثر من الوقت المعين وأن تكون أجرة العمل في مثل هذه الأوقات ضعفي المعدّل العادي (٧) تعيين أطباء وصيادلة يقومون بحاجات العمال الصحية اثناء المرض (٨) تحسين الأحوال الهيجينية في المعامل (٩) عدم معاقبة المعتصبين (١٠) لزوم دفع أجرة العمال أثناء الاعتصاب . أما المطالب السياسية التي لا يعلم العمال شيئاً منها عند تحول الاعتصاب الى صبغة سياسية فهي كما يلي

(١) استدعاء مجلس نواب تنتخبه الأمة بأكثرية الأصوات (٢) ايقاف الحرب في الشرق الأقصى (٣) العفو عن سائر المنفيين والمسجونين من المجرمين السياسيين (٤) حرية الجرائد والأديان (٥) حرية الاجتماعات والجمعيات

وترتب حركات الثورة على الاسلوب الآتي بيانه

في ١٦ يناير — يبتدئ الاعتصاب فيتوقف ١٢٠٠٠ عامل عن الاشتغال في معامل بوتيلوف — وفي ١٨ ينقلب الاعتصاب سياسياً فيرأس الأب غابون ٥٥ ألفاً من العمال — وفي ١٩ يزيد عدد المعتصبين الى أن يبلغ ٧٥٠٠٠ — وفي ٢٠ يصبح الاعتصاب عاماً فيتوقف ١٠٠٠٠٠ عامل و يقفل ١٢٤ معملاً — و يسير المعتصبون في الأسواق و يضطرون بقية العملة الى الانضمام اليهم و يطلب الأب

غابون باسمهم ان ٥٠٠٠٠٠ يودون مقابلة القيصر

وعند بلوغ هذا الحد من المناقشة قام كبير زعماء العمال وقال

« اذا كان لا بد من نجح المسعى في اعتصاب العمال فلا بد من ايجاد وسيلة نتمكن بها من اسعافهم بالدراهم والاّ ذهبت سائر مساعينا ادراج الرياح لأن العمال اذا أضربوا اليوم عن العمل عادوا اليه غداً بحكم الضرورة ولما كان عدد المعتصبين في بطرسبرج وضواحيها يبلغ خمسمائة ألف نفس فما قولك بسائر العمال الآخرين في موسكو ولوتزو وسيبيريا وبولونيا وغيرها و يلزم للقيام بأود عائلات هؤلاء المساكين عدة ملايين من الروبلات وهو مما لا قبل لنا به ولذلك أرى ان القيام بالثورة دون هذا السند الوحيد العظيم حبوط مسعى » فحصل على أثر ذلك سكوت عميق دام بضع دقائق لأن سائر الأعضاء أدركوا أن الرجل قد أصاب المحز في اعتراضه . فعلمت إذ ذاك ان الساعة قد حانت للاجهار بما بقي حتى الآن مكنوناً عن اخواننا في بطرسبرج فوقفت وسط ذلك المحفل الرهيب وقلت

« ان الثورة التي نحن قائمون بها انما هي ضرب من الحرب وقد قال نابليون العظيم انه يلزم للحرب ثلاثة أمور أولها المال وثانيها المال وثالثها المال ولو لم أكن على يقين من ذلك لما كنت قد دعوتكم للاجتماع هذه الليلة للقيام بأمر خطير يقتضي له ملايين من الروبلات وعليه فاني أعلن الآن على رؤوس الاشهاد أن ثروتي البالغة خمسين مليون روبل والتي هي الآن في مصرف انكلترا ستكون جميعها تحت إمرة لجنة العمال ليوزعوها عليهم أثناء الإعتصاب ليس في بطرسبرج فقط ولكن في موسكو وسواها من المدن والأمصار الروسية وستكون برمتها هنا في نحو أسبوعين من الزمن » - فضج الحاضرون لذلك ضجيجاً عظيماً وصفقوا تصفيق الفرح والحبور حتى بلغ هتافهم عنان السماء

ولم يمر أسبوعان من الزمن حتى وردت حوالة مالية على مصرف بطرسبرج بقيمة خمسين مليون روبل باسم أعظم تاجر هنالك وهو واحد من عدادنا فكانت حوالة لم يسبق لها مثيل في تاريخ تجارة روسيا فلم نلبث أن وزعنا جانباً كبيرا منها في ٢١ يناير أي مساء يوم الثورة و بعثنا بالباقي الى موسكو وسائر المدن

والأصقاع الروسية حتى حدود سيبيريا وكان ذلك أعظم باعث على الاشاعات التي تواترت بخصوص الاسعافات المالية التي وردت روسيا من مصادر يابانية انكليزية

فاستعرت في اليوم التالي نيران الثورة الروسية التي هي فخر ثورات القرن العشرين وتقاطر أولئك العمال البسطاء مئات ألوف الى قصر الشتاء وهم يظنون أنهم ذاهبون لتناول ايقونات من يد امبراطورهم فابتدأ يومنا الأول الذي سُمي بيوم فلاديمير خطأً وصواباً — خطأً لأنه نسب الى الغراندوق فلاديمير وصواباً لان اتباعي ينسبونه الى غورتشاكوف سرجوس فلاديمير

ولقد علمت يا عزيزي الطبيب من الرقيم الذي سقط مني أسرار مقتل الغراندوق سرجيوس والبواعث التي حملتني على مهاجرة الربوع في مثل هذا الحين أما السبب الذي لاجله ندمت على إشعال جذوة الثورة فهو لأني رأيت اني مطوّح ببلادي الى وهدة الخراب واني أساعد اليابانيين علينا في حين نحن أشد فيه حاجة الى الاتحاد منافي سواه ولما طالعت الاشاعات المتعلقة بشأن طلب روسيا الصلح على شروط تجحف بحقوقنا وتنزل من قدرنا أمام أوربا والعالم بأسره كدت أذوب حسرة وأسىً

ولا داعي أن أقص عليك تفاصيل يوم فلاديمير وما تلاه من الوقائع الخطيرة والحوادث الجسيمة لأن جميعها بنات أمس ولا تزال هذه الثورة الرهيبة حتى الساعة في سعير ولهب اذا خمدت في مدينة شبت في أخرى وسيكون لها في ارتقاء الجنس البشري ما كان للثورة الفرنساوية نحو مغيب القرن الثامن عشر فاذا كنتُ قد أسأت بها الآن الى وطني فمن حيث أردت الاحسان فانك لا ترى الساعة الاّ دموعاً مذروفة ودماء مسفوكة وحسرات تلوَ حسرات وزفرات تلوَ زفرات ولكنه سوف يأتي زمن وما ذلك ببعيد ترى فيه الأمة الروسية رافلة بأثواب المجد وعلى رأسها تاج الفخار وفي يمينها صولجان العزة فهي الآن في مهد الطفولية ومتى هرمت أوربا واشتعل رأسها شيباً وانحنى ظهرها كبراً تكون روسيا غادة فتانة لا تزال في ربيع العمر ومقتبل الحياة واذا كانت هذه الثورة في عداد الأسباب التي تبعث بأمتي ووطني الى ارتقاء قمة الفخار في الاستقبال فكفى بها كفارة عن سائر آثامي وجرائمي التي أتوب عنها الآن الى الله انَّ الله وليّ التائبين

بسط واعتذار

أنجزنا هذه الرواية في نحو ثلاثة أسابيع من الزمن جرى القلم في خلالها خبباً واهماجاً الى حيث نريد ولا نريد وكان الغرض من وضعها أولاً أن تكون بمثابة أساس تبنى عليه رواية أوفر حجماً وأوفى بياناً تنقطع الى تدبيجها وتبييضها في ساعات الفراغ ولذلك وجدتها غزيرة المادة زاخرة بالحقائق السياسية الشهيرة والوقائع التاريخية الخطيرة خالية من الحشو الذي هو آفة كثير من الروايات العصرية حتى انه يصح اعتبارها تاريخاً صحيحاً للنهضة الثوروية الروسية منذ أصيل القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن الحالي فرأى بعض الاصدقاء الخلصاء التعجيل بنشرها كما هي مخافة أن يجر عليها الدهر ذيل العفاء والنسيان فبعثنا بها الى المطبعة تواً دون أن يتاح لنا تنقيحها واعادة النظر فيها ولذلك فقد تخلل صفحاتها من عثرات العجلة والاغلاط المطبعية ما عقدنا النية على ملافاته في الطبعة الثانية اذا قدر لنا بلوغ هذه الامنية فتقدمنا الآن بهذا الاعتذار الذي نحسبه ديناً أدبياً علينا الى بلغاء الكتاب ولا سيما لاننا في زمن اصبحت اللغة العربية فيه فوضى ولا فوضى الثورة الروسية . وعليه فاننا نرجو رصفاءنا أصحاب الاقلام أن يردوا ما يعثرون عليه من هذا القبيل الى باب مراعاة النظير!

الفهرس

توطئة	ج
	صفحة
المقدمة	١
الفصل الأول — الجور يلد اثماً	٥
الفصل الثاني — سيبيريا الرهيبة	١٤
الفصل الثالث — تيهان سحيق	١٨
الفصل الرابع — مرتع البغي وخيم	٢٦
الفصل الخامس - وقع السهام ونزعهنّ أليمُ	٣١
الفصل السادس — ساعة المنية	٤٢
الفصل السابع — أوله سقم وآخره قتل	٥٤
الفصل الثامن — عاجز أعمى ترقى فانقلب	٦٦
الفصل التاسع — احدى حظيات لقمان	٧٥
الفصل العاشر — ماتكنُّ صدور الغواني	٨١
الفصل الحادي عشر — صعقات موسى يوم دُك الطور	٩٠
الفصل الثاني عشر - وما ظالم الا سيبلى بأظلم	١٠١
الفصل الثالث عشر — شرارة الثورة	١١٩
الفصل الرابع عشر — جُذوة من نار	١٢٨
الفصل الخامس عشر — فلها ثورة وفيها مضاء	١٣٤
بسط واعتذار	١٤١

A.U.B. LIBRARY

DATE DUE

JAFET LIB.
27 MAR 2008
Circulation Dept. 2

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

00335536